جريجوري التوري وقيام دولة الفرنجة



للدكتورة علية عبد السميع الجنزوري

أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد

كلية البنات جامعة عين شمس

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

جريجوري التوري وقيام دولة الفرنجة

للدكتورة علية عبد السميع الجنزوري

أستاذ تاريخ العصور الوسطى ~~المساعد~~

كلية البنات جامعة عين شمس

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــــدمة

كانت دولة الفرنجة فى غاليا من أهـــم الدويلات الجرمانية التى قامت على أنقـــاض الامبراطورية الرومانية التى سقطت عام ٤٧٦ م على يد الزعيم الجرمانى أودواكر (فى عهد الامبراطور رومولوس أغسطولس Romulus Augustulus)

والحقيقة أن الفرنجة احتلوا مكانة هامة فى تاريخ العصور الوسطى الأوربية ذلك لأنهم لم يسلكوا مسلك العداء مع أهالى غاليا الأصليين ولم يمسوا الكنيسة الكاثوليكية بضر بل حافظوا على عـلاقاتهم الودية معها ، وأكثر من ذلك أنهم ارتبطوا بعلاقات ود وولاء مع الامبراطورية البيزنطية التى كانت لها السيادة العلمانية على أوربا آنذاك ٠

ولكن بالرغم من ذلك فاننا نلاحظ أن الفـــرنجة المؤسيين وبالذات الميروفنجيين لم ينالوا حقهم فى الدراسة والبحث مثل خلفائهم الكارولنجيين ٠ لذا وجدت لدى رغبة ملحة وظمأ شديدا فى الوقوف على جوانب هذا الموضوع الذى يهم دارسى تاريخ العصور الوسطى الأوربية عامة ، والتاريخ الفرنسى خاصة ٠

واذا كنت بصدد التعرض بالدراسة والبحث لموضوع قيام دولة الفرنجة فانه لمن الأمور المنطقية أن أتعرض بالدراسة أيضا للمصدر الأساسى الذى أمدنا بكل المعلومات والوثائق الهامة عن دولة الفرنجة ، ألا وهو « جريجورى أسقف تور » .

وبناء عليه فان بحثنا سيركز على نقطتين هامتين أساسيتين هما :

١ - جريجورى التورى وحوليته عن تاريخ الفرنجة .

٢ - قيمة حولية جريجورى بالنسبة لتاريخ الفرنجة عامة وعصر كلوفس خاصة .

واذا كان لى أن أعيد الفضل الى أصحابه ، فاننى أتقدم بشكرى الجزيل الى الأستاذ الدكتور اسحق عبيد الذى زودنى بنسخة من كتاب تاريخ الفرنجة الذى كتبه جريجورى التورى وترجمة لويس ثورب الى الانجليزية عندما أبديت له رغبتى فى الكتابة عن هذا الموضوع ، كما أتقدم اليه بوافر شكرى لتوجيهاته المستمرة لى أثناء اخراج هذا البحث ، كذلك لايفوتنى أن أتقدم بعظيم امتنانى وشكرى الى والدى الروحى وأستاذى الجليل الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح

عاشور لما قدمه لى من نصائح وتوجيهات تخص بحثى هذا . كما أشكر الأستاذ الدكتور حلمى عبد الواحد أستاذ اللغة اللاتينية بكلية الآداب جامعة المنصورة لاشتراكه معى أحيانا فى تفسير بعض الغموض فى بعض النصوص اللاتينية .

وان كنت قد قصرت فى شىء فالكمال لله وحده .

المؤلفة

الدكتورة عليه الجنزورى

الفصل الأول

جريجورى التورى وحوليته عن تاريخ الفرنجة

كان العصر الذى أعقب غزوات البرابرة وسقوط الامبراطورية فى الغرب ٤٧٦ م ، من أحلك العصور فى تاريخ أوربا الثقافى فقد زاد فى هذا العصر نفوذ البرابرة فى المجتمع الغربى كما اتسع سلطان الكنيسة تدريجيا ٠ وأصبح التعليم منصبا عندئذ على الانجيل واللاهوت الأمر الذى جعل الدراسات الانســانية تحاول فى مشقة بالغة الاحتفاظ بكيانها ضد الخطر الذى أخذ يهددها لعدة قرون ٠ ذلك أن المــدارس الأسقفية والديرية غدت لا تهتم الا بتدريس اللاهوت والموسيقى الدينية والكتاب المقدس وسير القديسين المليئة بالمعجزات والخرافات (١) ٠

وهكذا لم يقدر البقاء للدراسات الراقية والثقافة الانسانية الا فى ايرلندا التى انبثق نور المعرفة من أديرتها الى سكتلند ونورثمبرلاند ثم بقيــة أنحــاء انجلترا ٠ ولم يلبث أن امتد بريق هذه الحركة العلمية الى صلب القارة عن طــريق المؤسسات والأديرة الأيرلندية التى قامت فى غاليا الفرنجية والمانيــا ولمبارديا (٢) ٠

---

(١) د٠ عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ١٢٦ ٠

(٢) د٠ عاشور : المرجع السابق ، ص ١٢٧ ٠

والواقع أن الأديرة لعبت دورا هاما فى صون الثقافة والحفاظ عليها ـ

=

لكننا نود ألا نبالغ فنحاكى البعض فى القول بأن العصور الوسطى كانت عصور ظلام وجهل على طول الخط ، اذ أثبت الواقع أن ركب الحضارة لم يتوقف فى أوربا العصور الوسطى وأن تلك العصور لم تخل من دراسات ونهضات ووثبـــات ٠ واذا كان بعض المؤرخين قد أطلق تلك التسمية (العصور المظلمة) على فترة بعينها فانهم حددوا « الفترة الميروفنجية المتأخرة » بأنها هى التى تصدق فيها تلك التسمية(١) ٠

ويكفى لتعضيد رأينا فى أن العصور الوســـطى بأكملها لم تكن عصور ظلام وجهل من أن نقول ان الجامعات التى نشأت فى أوربا فى القرن الثانى عشر الميلادى كانت خير ما قدمته العصـــور الوســـطى للعصور الحديثة ٠ ثم اننا نريد أن نؤكد أن الكنيسة ومؤسساتها ورجـــالها هم الذين احتـــكروا العلم والتعليم طوال الشطر الأكبر من العصور الوسطى ٠ وليس بخاف أن الكنيسة كانت تفرض قيودا شديدة

=

فكان هناك أديرة مدن مثل دير فولدا ودير القديس جول ومونت كاسينو ، وكان مقدمو الأديرة يعتبرن أن المكتبة وحجرة النسخ الموجودة بالدير جزءا لا يتجزأ من دولتهم الصغيرة داخل الدولة » ٠

(د٠ بيريل سمالى ترجمة د٠ قاسم عبده قاسم : المؤرخون فى العصور الوسطى ، ص ٥٩) ٠

1. S. Painter : A History of the Middle Age, p. 68.

على حرية الفكر وحرية البحث العلمى ، حتى انتهى مصير كل من حدثته نفسه بشىء من التحرر الفكرى الى اتهامه بالهرطقة وبئس المصير « فالجمال اثم ، والمرح وزر ، والجهل برهان على الخضوع لله والرضا بأحكامه ... »(١) .

لعبت المؤسسات الدينية دورا مرموقا فى الفترة المظلمة من تاريخ غرب أوربا فى تدوين التاريخ ، حيث كانت الكتابة التاريخية محصورة فى الكاتدرائيات والأسقفيات والأديرة . وكانت الفروع الثلاثة للكتابات التاريخية التى عرفتها العصور الوسطى هى السير . Biographies ، والحوليات Annals ، والوقائع Chronicles (٢) .

واذا كان جريجورى التورى ، علامة بارزة على طريق الكتابة التاريخية فى العصور الوسطى ، وكانت حوليته سمة أساسية من سمات الكتابة فى القرن السادس الميلادى ، فانه يجدر بنا أن نتناولهما بشىء من التفصيل وسوف نركز دراستنا لهما فى النقاط التالية :

---

(١) د. عاشور : أوربا العصور الوسطى ، جـ ٢ ، ص ٢٨٧ .

(٢) د. عاشور : حضارة ونظم أوربا فى العصور الوسطى ، ص١٥٦ .

١ - عائلة جريجورى وشخصيته ٠
٢ - العصر الذى عاش فيه ٠
٣ - كتابات جريجورى ٠
٤ - حوليته عن تاريخ الفرنجة ٠

وفى هذه النقطة الاخيرة نحاول التركيز على بعض النقاط الهامة منها : - التوثيق التاريخى والأدبى لتاريخ الفرنجة ، معرفة جريجورى الشخصية ، ومصداقيته ، والمؤرخون المعاصرون له، ولغته ، وأسلوبه ، والفكاهة والسخرية فى كتابته ، والمذكرات الطبيعية الى غير ذلك من النقاط الهامة ٠

عائلة جريجورى وشخصيته :

ولد جريجورى فى ٣٠ نوفمبر ٥٣٩ م (١) فى أرفيرنيا Arvernia المعروفة الآن باسم كليرمونت فيراند Clermont-Ferrand ، وقد انحدر من عائلات سناتورية مشهورة من ناحية كل من والده ووالدته ، وكان فى نفس الوقت من الغال الرومان

1. Lewis Thorpe : Introduction of the History of the Franks by Gregory of Tours, p. 7.

هنا تذكر بعض المراجع الحديثة انه ولد فى ٣٠ نوفمبر ٥٣٨ م ٠
د٠ اسحق عبيد : معرفة الماضى من هيرودوت الى توينبى ، ص ١٥٧ ،
Lexicon Universal Encyclopedia, 1983, T. 9, p. 356.

الأثرياء ذوى الشرف العظيـــــم . كان والده هو السناتور فلورنتيوس Florentius وجـــده الأكبر لأبيه هو السناتور جيورجيوس Georgius أما والدته أرمنتاريا Armentaria فكـــانت الابنة الكبرى للقديس تتريكوس Saint Tetricus أسقف (١) لانجر Langres ٥٣٩ - ٥٧٢ م (٢).

والواقع أنه كان لجريجورى العديد من الأجـــداد المشهورين الآخرين ولقد نوه هو نفسه بذلك حين قال: « ان هناك خمسة أساقفة يمتون له بصلات الدم ، من بين الثمانى عشرة أسقفا الذين سبقوه فى تور » . كما كانت له صلة قرابة بأحد شهداء المسيحية الأول

(١) كان التنظيم الدينى الكنسى يبدأ بقسيس الأبرشية فى القرية ثم يعلوه فى المنزلة الأسقف الذى يتم اختياره بواسطة رجال الدين والاهالى فى المدينة . وكان الاختيار يتم فى الكاتدرائية فى حضور مطران أو أسقف الاقليم . كان للاسقف قوة عظيمة للغاية فله وحده قوة جعل مذابح الكنائس مقدسة ، واحاطة الكنائس بهالة من القدسية ، ومباركة الزيوت المقدسة ، وهو الذى يمنح التثبيت الدينى للصغار ، ويعين رجال الدين فى أسقفيته ، أما بقية الاعمال والوظائف الاخرى فكان ينيب عنه فيها كبار الكهنـــة archpriests الذين يتم تعيينهم اما عن طريقه مباشرة أو بموافقة وتصديق منه .

Christian Pfister: The Cambridge Medieval History, V. II, p. 142, 143-145.

2. Lewis Thorpe : Introduction, Op. cit., p. 7.

وهو فتيوس ابا جاتوس Vettius Epagatus الذى قتل فى ليون فى ١٧٧ م ٠ والحقيقة أن العديد من أقارب جريجورى قد قدسوا من جانب الكنيسة الكاثوليكية ، كما قدس هو نفسه ، وقد لوحظ ذلك أكثر فى جانب والدته عن والده (١) ٠

وقد توفى والده وهو صبى ، فذهب ليعيش مع أسرة عمه القديس جالوس Gallos أسقف مدينة كليرمونت فيراند من ٥٢٥ ـ ٥٥١ م ٠ وعندما توفى جالوس ، كان جريجورى فى سنوات المراهقة المبكرة فظل مع أفيتوس Avitus رئيس الشمامسة الذى أصبح أسقفا من ٥٧٢ م ٠ لذا لم يكن الأمر يدعو للدهشة من أحد عندما عين جريجورى شماسا فى ٥٦٣ م ، وهو فى حوالى الخامسة والعشرين من عمره ٠ وفى عام ٥٧٣ م عندما توفى ايوفرونيوس Eufronius اختير جريجورى ليحل محله كأسقف تاسع عشر لتور وصدق الملك سيجيبرت على ذلك الاختيار ٠ وقد تولى جريجورى أسقفية تور لمدة احدى وعشرين عاما منذ ترسيمه فى ٢٠ أغسطس ٥٧٣ م حتى وفاته فى سن الخامسة والخمسين فى

1. L. Thorpe : Introduction, Ibid., p. 8.

٠ كان القديس Nicetius أسقف ليون من ٥٥٢ الى ٥٧٣ م عم أو خال والدته (Thorpe : Ibid., p. 7)

١٧ نوفمبر ٩٥٤ م (١) ٠

والواقع أنه اذا كان جريجورى قد أصبح أسقفا للغال الميروفنجيين فى القرن السادس ، فانه كان عليه أن يتحمل مسؤليات كبرى ٠

ذلك أن الأساقفة فى غاليا بصـفة عامة ، كانوا المؤيدين للموالين للعقيدة الكاثوليكية ، وللقوانين الكنسية وللمجامع الغالية العديدة ، فى مواجهـة اليهود ، والأريوسيين الهراطقة ، وأى متعصـبين آخرين ، حتى ولو كانوا ملوك بلادهم أنفسـهم ، والدجالين الذين كانوا يؤكدون بالحجة أن كلا منهم هو المسيح العائد ٠

1. L. Thorpe : Introduction ... Ibid., pp. 8-9.

عندما توفى جريجورى ٥٩٤ م دفن تحت احدى الاحجار اللوحية المأخوذة من كاتدرائيته فى تور ٠ وفى القرن السابع بنى القديس Ouen رئيس أساقفة Rouen ٦٤٠ ـ ٦٨٣ مقبرة ثرية لرفات جريجورى بجانب مقبرة القديس مارتن ٠ ولقد سقطت المقبرة بواسطة رجال الشمال فى القرن التاسع ٠ لكن فى السنوات المبكرة من القرن الحادى عشر رممت بواسطة Hervé de Buzancais خازن الكاتدرائية ٠ لكنها خربت تماما بواسطة البروتستانتالفرنسيين الهوغونوتيين Huguenots (The Vita Sancti Gregorii. عن حياة القديس جريجورى)

لقد أوضح لنا جريجورى نفسه فى بداية تاريخه (تاريخ الفـــــرنجة) بشىء من التفصيل عقيـــدته الكاثوليكية ومهامه كأسقف ، وأنه كان باستمرار فى مناقشات ومناظرات ومجادلات فى النقاط المتعلقة بالاهوت ، ذلك أنه يعتبر أن الأساقفة هم المدافعين عن العقيدة وهم الذين يقتدى بهم بالنســـبة لمبـادىء الأخلاق والسلوك العامة، وأنهم الذين يزاولون عمل الخير المسيحى • كما أنهم كانوا المسؤولين عن نفائس الكنيسة وعن الآثار المقدســة للقــديسين والشهداء وعن اصلاح وصيانة الكنائس القائمة وعن تشييد أماكن جديدة للعبادة • كذلك كان الأساقفة يقومون بزيارات تفتيشية لأديرة الرهبان والراهبـــــات فى أسقفياتهم ، كما راقبوا وأشرفوا على حجرات الطعام المتصلة بكتدرائياتهم ، بل كان لديهم العـــديد من الممتلكات يتولون ادارتها ، والعـــديد من الموظفين والخدم ليسوسوهم ، وأراضى واســـعة يزرعونها ، لقد كانت لهم قوة الحرمان الشخصى الكنسى المروعة، وكانت مبانى كنائسهم أماكن لها حـــرمة وقدسية • ومن هنا كان عملهم شاقا ومرهقا (١) • الى أقصى ما تحمله تلك العبارة من معنى •

---

1. L. Thorpe : Introduction, Ibid., pp. 9-10, 12.

تلك كانت المهام العامة للاساقفة . لكن ماذا كانت مسئوليات جريجورى الخاصة كأسقف لتور ؟
كان مطرانا (١) أو أسقفا لـ : Le Mens, Rennes, Angers, Nantes وأربع أبرشيات أخرى .
وفى فترة تولية الأسقفية أعاد بناء الكاتدرائية التى كانت قد احترقت وهدمت من جراء الحريق الذى خرب تور فى فترة أسقفية Eupfronius ، واستغرقت

---

(١) يعتبر المطران Metropolitan فى مرتبة أعلى من الاسقف Bishop كان للمطران مقـر فى البلدة الرئيسية فى الاقليم الرومانى . فى غضون القرن الخامس الميلادى كان اقليم Vienne قد قسم الى قسمين : فكانت هناك مطرانية فى Vienne وأخرى فى آرل Arles . ومنذ ذلك الحين فصاعدا كان هناك اثنا عشرة كرسيا مطرانيا مشهوراً .

Vienne, Arles, Sens, Bourges, Bordeaux, Trèves, Rheims, Lyons, Rouen, Tours, Eauze, Narbonne.

كان للمطران حق دعوة المجالس الاقليمية للانعقاد أو للاجتماع ، وأن يرأسهم .

ولقد مارس اشرافا معينا على أساقفة الاقليم ، وكان طبيعيا ان يعهد اليه بتمثيل القضاء بينهم . كان لقبه هو نفسه لقب أسقف . أما لقب رئيس أساقفة Archbishop فلم يظهر الا فى نهاية العصر الميروفنجى . وكانت سلطة المطارنة خاضعة لسلطة الكنيسة الفرنجية .

(Christian Pfister : The Cam. Med. Hist. V. II, p. 145)

ويقال انه فى زمن جريجورى كان كل مطران يحكم اقليما ويرأس مائة وثمانى عشرة مساعد أسقف .

(L. Thorpe : Ibid., p. 12).

تلك المهمة سبعة عشر عاما • كذلك أعاد بناء وزخرفة كنيسة القديس مارتن التى كانت قد احترقت وهدمت هى الأخرى ، كما أثرى العديد من الكنائس الكبرى والصغرى بآثار القديسين (١) •

ويقال ان جريجورى تحمل الاقامة فى تور رغم وجود عدد من الهاربين من العدالة الأشرار مثل Guntram Boso, Merovech, Eberulf (٢) •

ولقد قام جريجورى بالعديد من البعثات الدبلوماسية بين ملوك الفرنجة الذين كان صديقا جميعا لهم (٣) • وسافر داخل حدود غاليا كثيرا ، ولم يكن لديه فرصة أبدا لتركها ، ويقال ان رحلته الى Coblenz كانت فيما يبدو أطول رحلة قام بها (٤) •

1. L. Thorpe : Introduction ... Ibid., pp. 12, 14.
2. L. Thorpe : Ibid., p. 12.

(٣) خلال الاحدى والعشرين سنة لاسقفية جريجورى انتقل الحكم المدنى لتور من سيجيبرت الى شلبريك ثم مرة اخرى الى شلدبرت الثانى الذى تولى جنترام الوصاية عليه فى فترة سن ما قبل الرشد •
(L. Thorpe : Ibid., p. 12).

(٤) نجده فى Bordeaux, Blaye, Berny-Rivière, Autun Chalon, Cavaillon, Carignan على الساءوون ، كليرمونت فيراند ، كوبلنز Dijon ، ليون ، متز ، نوجنت على المارن ، أورليان ، باريس ، بواتييه قرب ريمس ، Saintes, Riez ، سواسون وفينا
(L. Thorpe : Ibid., p. 13)

كان جريجورى أحد قضـــــاة الاميرتين كلوتيلد Clotild وباسينا Basina بعد الثورة التى قامت فى دير القديسة راديجوند Radegund للراهبات فى بواتييه (١) ٠

ويقال ان جريجورى كان كثير التعرض للامراض، وأن ذلك كان راجعا الى عاداته فى مزج جـــرعات غريبة وكريهة الرائحة من منقوعات التــراب وآثار القديسين ٠ والواقع ان توعكه ومرضه بكثرة لم يكن ليحدث شيئا من الغرابة فى تلك الأيام التى تفشى فيها الطاعون والدوسنتاريا ٠

كذلك كان صاحب قلب كبير ، والأمثلة على ذلك كثيرة منها على سبيل المثال لا الحصر : رفضه تسليم جنترام بوسو الى رسول شلبريك المتغطرس المسمى روكولين Roccolen ، وفى ظروف مماثلة رفض تسليم ميروفتش ، وهو وحده الذى دافع عن الأسقف Praetextatus فى مجمعباريسالكنسى ، وجادل بشدة الملك شلبريك عن التمييز بين الأشـــخاص ، ودافع عن نفسه ببسالة فى مجمع Berny-Rivière الكنسى ٥٨٠ م بسبب اتهام شلبريك له بتشويه سمعة الملكة فريديجـــوند Fredegund ، وأثبت براءته

---

1. L. Thorpe : Introduction ... Ibid., p. 13.

ولم يهجر البلاد كما كان يحرض على ذلك ، وقاوم بعنف محاولات جباة الضرائب التابعين للملك شلدبرت لفرض ضريبة على سكان مدينة تور (١) ٠

كان جريجورى شديد التواضع ، حقيقة انه كان فخورا بأقاربه المشهورين البارزين ، الا أنه كان يعتبر ذلك اكراما لهم وليس لنفسه ٠ وبالرغم من أنه لعب دورا كبيرا فى تاريخ عصره ، الا أنه نادرا ما أشار الى نفسه ، بل انه اذا اضطر الى ذلك فانه كان يصور دوره الحقيقى على نحو أقل مما تقتضيه الحقيقة (٢) ٠

يضاف الى تواضعه ، نكرانه الشديد لذاته الذى يبرز لنا بوضوح من تصفحنا لحوليته «تاريخ الفرنجة» لذا نؤيد رأى لويس ثورب الذى يدونه فى صورة رد موجه الى جريجورى فيقول : « ان تاريخ الفرنجة يؤكد اعجابنا بتفوقك الشديد البراعة ومهارتك العظيمة فى تحليل وتشكيل مادتك الشديدة الصعوبة » ٠ هنا قد يصرف جريجورى النظر عنا كمتملقين ومداهنين شديدى العناد ، لأن تواضعه كان صادقا ، خاليا من الرياء أو التكلف (٣) ٠

---

1. L. Thorpe : Introduction... Ibid., pp. 13-14,

د٠ اسحق عبيد : معرفة الماضى ، ص ١٥٨ ٠

2. L. Thorpe : Ibid., p. 14.
3. L. Thorpe : Ibid., p. 49.

كذلك كان جريجورى رجلا يمتلىء قلبه شفقة وحنانا ورقة . نستشهد على ذلك بفقرة من كتاباته عندما أخبرنا أن الدوسنتاريا أهلكت أهالى غاليا سنة ٥٨٠ م فكتب يقول : « بدأ الوباء فى شهر أغسطس ، وهاجم صغار الاطفال فى البداية ، وكان قاتلا فتاكا ، بالنسبة لهم ، وهكذا فقدنا صغارنا الذين كانوا محببين الى نفوسنا ، والذين كنا نذللهم على صدورنا ونأرجحهم بين أيدينا ... وها أنا أمسح دموعى وأنا أكتب ذلك ... » (١) .

يضاف الى ذلك أن جريجورى كان يتمتع بروح ذواقة للفكاهة ، والدعابة ، بل انه استخدم الفكاهة كأداة للسخرية فى بعض كتاباته كماسنوضح فيما بعد .

العصر الذى عاش فيه جريجورى :

اذا انتقلنا الى العصر الذى عاش فيه جريجورى نجده واكب مرحلة خطيرة فى تاريخ الأسرة الميروفنجية ، مليئة بالقتل والدم ، بالصراعات والحزازات ، بالاضافة الى الكوارث الطبيعية . بدأت

---

1. L. Thorpe, Ibid., p. 15.

تلك المرحلة بمقتل الملك سيجيبرت Sigibert (١) ٥٧٥م ، وكان جريجورى وقتها فى السادسة والثلاثين من عمره ، عندئذ انتقل حكم غاليا الى شـــلبريك شقيق سيجيبرت من أم أخرى · عاش شلبريك تسع سنوات بعد مقتل سيجيبرت (٥٧٥ ـ ٥٨٤) وكان ملكا مستبدا فى حكمه (٢) · كان له ثلاث زوجات : أودوفيرا Audovera التى حبست فى دير للراهبات وفى النهاية قتلت بواسطة فريديجوند ، وجالسونث Galswinth أخت الملكة برونهليد Brunhild زوجة سيجيبرت وهى التى أعدمها شلبريك ، أمـــا زوجته المروعة القاسية فريديجوند فقد ماتت بهدوء فى سريرها بعد عدة سنوات فى ٥٩٧م (٣) · أمـــا

---

(١) سيجيبرت ابن لوثر الاول الذى توفى فى ٥٦١م والاخير بن كلوفس الذى توفى ٥١١ م ، والذى يعتبر المؤسس الحقيقى للاسرة الميروفنجية ، يقال ان سيجيبرت قتل فى عزبة Vitry المكلية بين Dovai Arras, وكان الشابان اللذان قتلاه بسكينين سامين فى وقت واحد ، قد حرضا بواسطة الملكة فريديجوند زوجة شلبريك الثالثة ·
(L. Thorpe : Ibid... p. 19)

(٢) د· اسحق عبيد : معرفة الماضى ، ص ١٥٧ ·

(٣) يبرز لنا ريتشارد سليفان مدى القسوة والوحشية التى كانت متفشية بين ملوك الفرنجة أولا ثم بين نسائهم ثانيا وذلك عندما يقول : « قلما نجد أسرات ملكية على امتداد التاريخ استطاعت أن تصل الى مثل هذه الدرجة من العنف والوحشية ، وحتى نساؤهم كانت أشد وحشية وقسوة وبصفة خاصة برونهيلدا احدى أميرات القوط الغربيين التى تزوجت من

أبناء شلبريك : فقد قتل ابنه الأكبر المسمى ثيوديبرت Theudebert فى ميدان المعركة ، أما كلوفس الابن الثالث لشلبريك من أودوفيرا فقد قتل فى ميدان المعـــركة ، أما كلوفس الابن الثالث لشـــلبريك من أودوفيرا فقد قتل بواسطة فريديجوند · وبالنســـبة لبناته : فقد كانت ابنته كلوتيلد زعيمة الثورة فى دير القديسة راديجوند للراهبات فى بواتييه·أما ريجونث Rigunth وهى ابنته من فريديجوند فقد خرجت فى رحـلة منحـوسة لتتزوج من Recard ابن ملك القوط الغربيين (الملك Leugivild) ، لكنها ما أن بلغت تولوز حتى أعلن عن وفاة والدها ، عندئذ

=

الملك سيجيبرت والتى أطلق عليها المعاصرون اسم (أيزابيلا الثانية) · وكذلك فريديجوند جارية الملك شلبريك وعشيقته والتى أصبحت ملكة بعد خنق زوجته الاولى أخت برونهيلدا ، ونتيجة لذلك اشعلت فريديجوند نار الحقد والكراهية فى قلب برونهيلدا حتى بلغ الامر تدبير مقتل سيجيبرت وتحريض شلبريك بالاستيلاء على ارث ابناء برونهيلدا وان أعمال العنف العديدة لهاتيك الملكات اللائى لا يغلبن على أمرهن قد أضر بمصالح أزواجهن ونسلهن الى أبعد الحدود ·· » ·

(ريتشارد ·أ· ساليفان:ترجمة د· جوزيف نسيم : ورثة الامبراطورية الرومانية ، ص ٨٠) ·

وتعتبر فريديجوند على حد تعبير لويس ثورب : المرأة السليطة المشاكسة الخبيثة الصاخبة فى تاريخ الفرنجة ·

"Fredegund is the raging virulent virago".
L. Thorpe : Introduction : Op. cit., p. 48.

عادت الى بيتها لتعيش مع والدتها الأرملة فى عداوة متناهية ٠

قتل الملك شلبريك ـ الذىيلقبهجريجورىبالشرير ـ فى ٥٨٤ م فى مدينة Chelles الملكيـــة (١) ٠ وبوفاته أصبح جنترام هو الابن الوحيد الباقى للوثر الأول ٠ ولما كان جنترام نفسه قد فقد كل أبنائهالأربعة منذ مدة طويلة : وذلك بعد أن قتلت زوجته الثانيـة ماركاترود Marcatrude ابنه الوحيد جنـدوباد من زوجته Veneranda ثم فقدت هى ابنها نفسه ٠ ومات كـــل من طفلى زوجتـــــه Austrechild بالدوسنتاريا فى ٥٧٧ م ٠ لذا تبنى جنترام شلدبرت الثانى ابن سيجيبرت٠وهكذا « فمنذ ٨٥٤م وصاعدا كان جنترام يمثل العم الأكثر أو الأقل كرما لشلدبرت الثانى ، وقد جعله ابنه بالتبنى » ٠

وما أن شب شلدبرت الثانى الى سن الرجولة حتى تركزت علاقته بالملك جنترام حول معاهدة انديلوت

---

(١) فى أحد الايام عندما كان شلبريك عائدا من الصيد وقت الغروب ، وأثناء ترجله عن فرسه وضع احدى يديه على كتف أحد الخدم فسار اليه رجل وضربه بسكين تحت ابطه ثم طعنه فى معدته ٠ عندئذ سال الدم من فمه ومن الجروح ومات فى الحال ٠
(L. Thorpe : Introduction, p. 20)

Andelot ٥٨٧ م • وخلف شلدبرت وقفت أمه الملكة برونهيلد العدو اللدود للملكة فريديجوند أرملة شلبريك (١) •

والواقع ان التطاحن والمنازعات لم تكن بين أفراد البيت الميروفنجي وحده زمن جريجورى ، بل كانت هناك صراعات أخرى بين كبار أمراء ونبلاء الدولة من ناحية وبين الملوك من ناحية أخرى فقد اعترض كبار الأمراء على سلطة الملوك مثل :

Boso, Guntram, Mummolus, Rauching, Ursio, Eberulf Gundovald, Berthefried

يضاف الى ذلك الاحن والضغائن بين جميع المناطق والنواحى مثال ذلك اتحاد رجال أورليانزوبلوا ليخربوا شاتيودون Châteaudun وشارتر • بل كانت هناك منازعات وحشية داخل المدن نفسها ففى تور مثلا هاجم سيشار Sichar أوسترجيزل Austregesil وقتل أونو Auno ، وحاول ابن أونو المسمى Chramnesind أن ينتقم من سيشار ثم أصبحا صديقين ، لكن ابن أونو شعر بنداء الدم فقتل سيشار (٢) •

---

1. L. Thorpe : Ibid ... p, 20.
2. L. Thorpe : Introduction ... Ibid., pp. 20-21.

وتكتمل صورة المسرح غير المستقر ، والمحفوف بالمخاطر باستمرار ، الذى عاش فوقه جريجورى ، اذا عرفنا أن الجيوش كانت تسير فى غاليا الى أعلى والى أسفل ، بهدف التخريب والنهب أكثر من مقاتلة العدو . كما توهجت الحرائق فى عدد من المدن الهامة مثل Marevil خارج بلوا ، فى بواتييه ، فى باريس وفى تور نفسها . كما تكررت الفيضانات وكثرت المجاعات والاوبئة ، هذا بالاضافة الى السفاكين والقتلة الذين كانوا يتربصون وينقضون ومعظمهم كما يعتقد جريجورى كانوا جواسيس ومبعوثين للملكة فريديجوند .

والواقع أن هذا الجو الغريب الذى عاش فيه جريجورى ـ والذى صوره لنا فى حوليته عن « تاريخ الفرنجة » التى سنتناولها بشىء من التفصيل فيما بعد ـ هو الذى جعل الأستاذ كريستيان بفستر يعلق على تاريخ جريجورى بتلك العبارة الموجزة : « تاريخ جريجورى ملىء بتسجيل الأحداث المرعبة » (١) . ثم يؤكد هذا التعليق بصورة أخرى فى قوله . « انه بكتابة جريجورى التورى لتاريخ الفرنجة أحييت تلك الفترة العاصفة المضطربة مرة ثانية بعيوبها

---

1. Christian Pfister : The Cam. Med. Hist., V. II, p. 145

ونقائصها ، بجرائمها وآلامها » (١) ٠

كتابات جريجورى :

اذا كان جريجورى قد عاش خمسا وخمسين سنة فقط ٥٣٩ ـ ٥٩٤ م ، فانه كان فى الاحدى والعشرين سنة الأخيرة منها فى غاية الانشغال بسبب توليه أسقفية تور ، الا أنه كان كثير العطاء ٠

والحقيقة أن جريجورى عندما كان يودعنا فى آخر كتاب تاريخ الفرنجة أعطانا قائمة موجزة بمؤلفاته : « لقد كتبت أنا جريجورى العشرة كتب لهذا التاريخ ، سبعة كتب عن المعجزات وواحد عن حياة الآباء ، وألفت كتابا فى الشرح والتعليق على الترانيم المقدسة ، كما كتبت أيضا كتابا عن مناصب الكنيسة » ٠

والقائمة الكاملة لمؤلفات جريجورى كما هو تحت أيدينا تظهر على النحو التالى :

1. The Historiae Francorum.

وترجمته « تواريخ الفرنجة » المعروف لنا باسم تاريخ الفرنجة ٠

---

1. Christian Pfister : Ibid., p. 156.

2. The Liber in Gloria Martyrum Beatorum.

وترجمته «كتاب تمجيد الشهداء السعداء» . وهو يتكون من مائة وستة فصلا . آخر اشارة فيه الى عودة شماس جريجورى المسمى Aguilf من روما ٥٩٠ م .

3. The Liber de passione et virtutibus Sancti Juliani martyris.

وترجمته « كتاب عن أحاسيس وفضائل القديس جوليانوس الشهيد » وهو كتاب فى خمسين فصلا ، وآخر اشارة فيه الى ترسيم جريجورى فى ٢٠ أغسطس ووصوله الى تور كأسقف فى ٢٨ أغسطس ٥٧٣ م .

4. The De Virtutibus beati Martini episcopi.

وترجمته فضائل الأسقف مارتن السعيد » . وهو يحتوى على أربع كتب ، وآخر ما تناوله عيد القديس مارتن ٤ يوليو ٥٩٣ م .

5. The Liber Vitae Patruum.

وترجمته « كتاب حياة الآباء » وهو كتاب واحد فى عشرين فصلا . وآخر اشارة فيه الى عودة شماس جريجورى المسمى Aguilf من روما فى ٥٩٠ م .

6. The Liber in gloria Confessorum.

وترجمته « كتاب فى تمجيد الاعترافات » وهـــو كتاب واحد فى مائة وعشرة فصلا ، وللمرة الثالثة ، آخر اشارة الى عودة شماس جريجورى Aguilf الى الوطن ويســـميه « الرجـــــل المخلص لى Mihi vir fidelis » وذلك فى عام ٥٩٠ م ٠

وتشكل الموضوعات أو الكتب رقم ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٦ معا السبع كتب الخاصة بالمعجزات التى أشار اليها جريجورى فى فقرته السابقة ٠

7. The Liber de miraculis beati Andreae Apostoli.

وترجمته « كتاب عن معجــزات الحوارى أندريه السعيد » وهو كتاب يتضمن ثمانى وثلاثين فصــلا قصيرا ٠ وقد ترجم هذا الكتاب عن اليونانية ٠

8. The Passio Sanctorum Martyrum Septem Dormientium apud Ephesum.

وترجمته « خطوة الشهداء المقدسين الســـبعة النائمين عند افسوس » وهو كتاب واحد فى اثنا عشر فصلا قصـــــيرا ، ترجم من السريانية الى اللاتينية بواسطة جريجورى ٠

9. The De Cursu Stellarum ratio.

وترجمته « احصاء حركة النجوم » وهو كتاب فى سبع وأربعين فصلا قصيرا وهو يحتوى على اشارة الى رؤية نجم ذو ذنب فى غاليا قبل مقتل الملك شيجيبرت مباشرة فى سنة ٥٧٥ م · بالاضافة الى فقرة دونت بواسطة جريجورى ، وهى التى ذكرت من قبل عن مناصب الكنيسة ·

10. The in Psalterii tractatum commentarius,

وترجمته « التعليق على ادارة بسالترى » وقد فقد الكتاب ما عدا المقدمة وعناوين الفصول ·

11. A book on the Masses of Sidonius Apollinaris,

وترجمته « جماهير سيذونيوس أبولينارس ، وقد فقد هذا الكتاب ·

اذا حاولنا أن نقارن بين الموضوعات أو الكتب السابقة ، نجد أن رقم ٣ ، ٧ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ هى الأصغر بالمقارنة بالأخرى ، وكل منها يمكن كتابته كوحدة كاملة على عكس رقم ١ ، ٢ ، ٤ ، ٥ ، ٦ التى تتألف من مواد روائيةمتدفقة ،اعتمد عليهاجريجورى فيما يرويه باستمرار ، ما دامت صحته تسمح ، وكل هذه الكتب تأخذنا الى سنة ٥٩٠ م (١) ·

---

1. L. Thorpe : Introduction ... Op. cit., pp. 22-23.

كان هذا هو كل ما كتبه جريجورى التورى وأثرى به المكتبة التاريخية والدينية والأدبيـة فى القـــرن السادس الميلادى . ويهمنا أن نركز الضوء الآن على حوليته عن تاريخ الفرنجة لأهميتها بالنسبة للمهتمين بالدراسات التاريخية عامة وبتاريخ العصور الوسطى الأوربية خاصة .

يتكون تاريخ جريجورى أو حوليته التى يسـميها هو تواريخ الفرنجة The Historiae Francorum من عشرة كتب . يحمل الكتاب الأول عنوان « الكتاب الأول للتاريخ الاكليريكى الكنسى » .
"Historiae Aeclestiasticae Liber Primus",

وأيضا «الكتاب الأول للتاريخ» "Liber Historiarum Primus" ويسمى الكتاب العاشر ، الكتـــاب العاشر للتاريخ »
"Liber Historiarum Decimus"

وكلمات جريجورى المقتبسة فى الفقرة التى سبقت الكـــلام عن كتاباته هى « عشرة كتب للتـــواريخ "Decem Libros Historiarum ولهذا كان بالنسبة له تواريخ Historiae (١) .

---

1. L. Thorpe : Introduction ... Ibid., p. 22.

اذا حاولنا أن نستعرض الخطـــوط الرئيســـية العريضة لحوليته تاريخ الفرنجة نجدها باختصــار كما يلى :

١ ـ تعتبر استعراضا كبيرا للملوك والملكـات :
حقيقة ان جريجورى كان شاهدا لأحداث دولةالفرنجة بعد مقتل سيجيبرت ٥٧٥ م وتولية شلدريكلكنه تناول تاريخ الأسرة الميروفنجية منذ بدايته ، حيث أعـــاد الأسرة أولا الى Clogio أو Clodio المؤسس النصف أسطورى للاسرة ، ثم جعل مؤسســها الذى اشتقت اسمها منه هــو Merovech الذى توفى سنة ٤٥٦ م ، وهو ابن كلوديو المزعوم ثم خصص جريجورى فصلين فقط لأحداث عهد ابنه شـلدريك Childeric الذى توفى فى عام ٤٨١ م ، أما الملك الميروفنجى الثالث وهو كلوفس الذى توفى ٥١١ م ، فقد عالج جريجورى فترة حكمه بتركيز واسـتفاضة أكثر • ذلك أنه كان أول من استطاع توحيد كل غاليا تحت حكم الفرنجة البحريين ، وكانت له توســعاته الخارجية الواسعة ، ثم انه اعتنق المســيحية على مذهبها الكاثوليكى وذلك بعد زواجــه من الأميرة البرجندية كلوتيلد • لذلك سنرجىء الكلام عنه بشىء من التفصيل بعد الانتهاء من الدراسة التحليلية لتاريخ جريجورى التورى ككل •

ترك كلوفس أربعة أبناء هم : Theuderic وهـو طفـل من احدى محظياته ، Lother 1, Childebert 1, Chlodomer وهم الابناء الثلاثة الذين بقوا على قيد الحياة من كلوتيلد · وكانت منازعاتهم لا تنتهى، وحروبهم شهدتهاكل من برجنديا وسبتمانيا وأسبانيا · فقد قتل لوثر الأول أبناء كلودومير بتشجيع سرى من شلدبرت ثم حطم لوثر ابنـــه العاصى Chramn وقد وصف جريجورى ذلك وصفا واضحا ، ولكنـه متقطعا فى الكتابين الثالث والرابع ·

توفى لوثر ٥٦١ م وكان كل اخوته الذكور قد ماتوا قبله · ترك لوثر أربعة أبناء : ثلاثة منهم سـيجيبرت Sigibert ، جنترام Guntram, ، شـاريبرت Charibert, من زوجتـــه الثانيـــة Ingund . شلبريك Chilperic وهو الوحيد من زوجتـــه الثالثة Aregund .

والواقع أن غاليا التى كانت موحدة تحت حكم كل من كلوفس ثم لوثر الأول ، كانت بعـد وفاة الأخير أكثر انقساما بين الاخوة الأربعة ، هذا بالاضافة الى باريس وأورليـــان وريمس ، وكانت العاصــــمة سواسون ولقد وصفت أحـــداث عصرهم حتى وفاة شاريبرت فى ٥٦٧ م بطريقة سريعة جافة فى الكتاب

الرابع الفصول من ٢١ الى ٤٥ · وبوفاة شاريبرت أكبر الاخوة كان هناك تقسيم جديد · ولقـــد دونت جهود كل من جنترام وسيجيبرت وشلبريك حتى ٥٧٥م فى الكتاب الرابع الفصول من ٤٦ حتى ٥١ · وفى ٥٧٥ م قتل سيجيبرت كمـــا أسلفنا وبدأ جريجورى يكتب من منطلق السلطة وعن طـــريق المعلومات الشخصية من موقعه كمطران وأسقف لتور ·

عاش شلبريك تسع سنوات بعـد مقتل سيجيبرت ولقد أعطيت أحداث تلك الفترة مع تفاصيل هامة فى الكتاب الخامس والسادس ، والواقع أننا أشرنا من قبل الى شلبريك وزوجاته وأبنائه وعلاقتهم بعضهم ببعض عند تناول الملوك المعاصرين لجريجـــورى · وبمقتل شلدريك ٥٨٤ م كان جنترام هو الابن الوحيد الباقى للوثر الأول ، ولما كان قد فقد أبناءه الأربعة كما سبق الذكر ، لذلك تبنى شـــــلدبرت الثانى ابن سيجيبرت · والواقع أن الفترة من ٥٨٤ الى ٥٩١ م عولجت بشىء من التفصيل فى الكتاب السابع الى العاشر من تاريخ الفرنجة (١) ·

٢ ــ تاريخ الفرنجة عبـــارة أيضـــا عن موكب للاســاقفة ولرؤساء أديرة الرهبان والراهبـــات ،

---

1. L. Thorpe : Introduction ... Ibid., pp. 16-20.

ومجموعة أخرى من كبار رجال الكنيسة • وقد سجل جريجورى أنشطتهم أولا بطريقة متقطعة ، كما سمعها منهم ، أو كما تناولهم بالبحث والدراســـة فى كتبه الأخرى • ثم عاد للوارء ثانيا بطريقة منتظمة وأضاف ثمانى وستين فصلا ، معظمها يبحث فى رجال الكنيسة من الكتاب الأول والثانى والرابع والخامس والسادس وفى النهاية عمل شبه مراجعة للاساقفة الثمانى عشر الذين تولوا أسقفية تور من قبله (١) •

٣ – فى النهاية نقرأ القليل عن الفقراء الحقيقيين فى تاريخ جريجورى ، ونحس بذلك من خلال ذروة قلقهم من أجل دفع الضرائب ، وخوفهم من مصيرهم الأكثر رهبة وهو الرمى فى السجن ، حيث يقيدون بالسلاسل فى جذوع الأشجار ويتركون حتى يتعفنوا بعيدا (٢) •

لكن قبل أن نسترسل فى الحديث عن الدراســـة التحليلية لكتاب تاريخ الفرنجة ، نود أن نعرف السبب الحقيقى الذى دفع جريجورى الى تأليف مثل هـــذا التاريخ أو التواريخ ؟

ونجد الرد على سؤالنا فى تنويح جريجورى نفسه

---

1. L. Thorpe : Ibid., pp. 20-21.
2. L. Thorpe : Ibid., p. 21.

فى مقدمة كتابه بالحقيقة القائلة بأنه لم يكن فى غاليا فى ذلك الوقت ، رجل واحد يستطيع أن يدون كتابا عما يحدث آنئذ ٠

والواقع أنه بعد ترسيم جريجورى أسـقفا فى ٥٧٣ م ، فكر مليا فى متطلبات عصره ، واستعان بكل امكاناته الجديدة ، « وبدأ يشعر بحاجة ملحة للراحة والاستجمام منهم » أى ممن حوله جميعا ، فأخذ على نفسه مهمة كتابة مثل هذا التاريخ المعاصر ، واستمر يدون فى ذلك الكتاب حتى سنة وفاته ، بالرغم من أن آخر سنة عولجت بشىء من التفصيل كانت سنة ٥٩١ م ٠

ونود هنا أن نتناول عبارة أنه « بدأ يشعر بحاجة ملحة للراحة والاستجمام منهم » بشىء من التحليل ٠ والواقع أن جريجورى كان يقصد بالطبع هنا الراحة من الضغوط النفسية الشديدة التى كانت تسـببها الصراعات والمنازعات المستمرة بين أبنـاء البيت الميروفنجى ، والدم الذى كان يخضب كل يوم بقعة أو أكثر من غاليا ٠ وبمتابعته لذلك كله كان يدون ويدون فى هدوء كل ما يحدث ، سواء كشاهد عيان بنفسه أو عن طريق رواية شهود عيان ٠

وسرعان ما تراكمت كتاباته ، وكان الاحتمال كبيرا أن يموت جريجورى فى أى وقت وحوله كل ما دونه

على شكل مذكرات ، دون أن يكون هناك كتاب مكتوب يتضمن كل ذلك ويحفظه من الضياع · لذلك كان لابد أن يبدأ جريجورى فى التدوين المنظم لهذا التاريخ ·

وبالفعل دون جريجورى تاريخه الذى يعتبر فى الحقيقة أكثر من عرض للاحداث وفقا لتسلسلها الزمنى ، لأنه كان لديه تذوق قوى بالرواية ، فالأحداث الأكثر أهمية كان يسردها فى تسلسل درامى ، أما الأحداث الصغرى المتميزة فكانت تدخل فى النمط المتسلسل زمنيا · ويعتبر جريجورى بارعا فى سرد الأخبار والقصص ، لذا فنحن نؤيد لويس ثورب فيما قاله عن كتاب تاريخ الفرنجة من أنه « لا يعتبر وثيقة تاريخية جافة ، لكنه يكشف عن راو مسرحى مثير مفعم بالحيوية والنشاط لتاريخ فرنسا فى القرن السادس » (١) ·

بدأ جريجورى الكتاب الاول من تاريخ الفرنجة ببداية خلق الكون فصاعدا ، فمثلا تناول فيه أصل المسيح وميلاده والاحداث الأخيرة للعهد الجديد ، واستمر الكتاب حتى وفاة القديس مارتن فى ٣٩٧ م · ولقد اعتمد جريجورى فى كل ذلك على قراءاته لتواريخ ايوزيب Eusebius ، والقديس جيروم Saint Jerome وأورسيوس Orosius بالاضافة الى معرفته بالانجيل ·

---

1. L. Thorpe : Ibid., الغلاف

ويقال انه عندما تولى أسقفية تور كان قد انتهى من عمل مسودة من الكتب المبكرة حتى الكتاب الرابع ويقال أيضا أنه ما أن انتهت قصة الكتاب المقدس ، حتى كان تاريخه عبـــارة عن رواية لاهم وأعظـــم الاحداث الدنيوية فى غالية وســـجل للقديســـين والمعجزات وأساقفة الكنيسة • والواقع ان الكتاب الثانى والثالث والرابع تمثل الفترة ما بين ٣٩٧ م ومقتل سيجيبرت فى ٥٧٥ م • أما الكتاب الخامس الى العاشر فيبدأ بفترة من ٥٧٥ م وفيهـــا يكـــون جريجورى شاهد عيان لاحداثه • ونلاحظ أنه يستوقفنا فى سنة ٥٩١ م ليسجل لنا الساعات العاصفة بالنسبة لحالة الطقس من أمطار مستمرة وفيضان أنهار ثم يترك قلمه فترة ، ربما لشعوره بالشيخوخة والتشاؤم لكنه فى آخر تجديد لقوته يلتقط قلمه مرة أخـــرى ليكتب لنا قائمة بأساقفة تور الثمانى عشرة السابقين، وذلك فى شـــكل ملحق من Gatianus حـــتى Eufronius ، وكتب فقرة عن كل منهم ، ثم أضاف فى النهاية فقرة متواضعة عن نفسه • وأخيرا توسل الينا فى فقرة لا تنقص من قدره ومع ذلك فانها مكتوبة من القلب ، الا نتعامل مع كتابه بعنف وألا نحرفه • وأحصى أرقامه فى آخـــــر وقت فكـــانت ٥٧٩٢ (MMMMMDCCXCII) رقما (١) •

---

1. L. Thorpe : Ibid, pp. 24-27.

التوثيق التاريخى والأدبى لتاريخ الفرنجة :

اذا دققنا النظر فى تاريخ الفرنجة نجد أن جريجورى التورى لم يكتبه من مشاهداته الشخصية وحدها ، بل على الأقل بالنسبة للفقرة السابقة عنه نجده استقى المادة الخاصة بها من عدة مصادر ، لكن أهم ما يميزها جميعا الاصالة والثقة والمعاصرة لنفس الأحداث . فمثلا بالنسبة للكتابين الأول والثانى اقتبس العديد من نصوصها عن ايوزيب والقديس جيروم وأورسيوس ، كذلك اعتمد جريجورى على سلبكيوس سفروس Sulpicius Severus (من حوالى ٣٥٣ ـ حوالى ٤١٠ م) مؤرخ التواريخ المقدسة The Historiae Sacrae كما استعان أيضا بفكتوريوس الآكوتينى Victorius of Aquitain الذى ازدهر حوالى ٤٥٧ م .

كذلك نراه فى الكتاب الثانى الفصول ٨ ، ٩ أظهر الاشارات المبكرة عن ملوك الفرنجة واستقى مادته من مصدرين يعتبران مفقودين بالنسبة لنا حتى الآن وهما :

1. The Historia of Renatus Profuturus Frigeridus.

2. The Historia of Sulpicius Alexander.

وسلبيكوس الكسندر ازدهر متأخرا فى القرن

الرابع • ولقد اقتبس جريجورى مـــن المصــــدرين السابقين فقرات طويلة • كما أخذ مـــــادة أكثر من أورسيوس ، واشارة الى حياة القديس أنيانى المتوفى ٤٥٣ م • "The Vita Sancti Aniani".

والى خطابين بواسطة سيدونيوس أبولنارس (من حـــوالى ٤٣٠ الى حوالى ٤٨٨ م) • واذا كـــان سيدونيوس قد وضع دراسة أساسية للمجتمع كتلك الخاصة بنشأة فرنسا بواسطة كلوفس "The France created by Clovis" فان جريجورى استفاد منها فى تسجيل تاريخه المبكر عن الفرنجة (١) •

كذلك قدم جريجورى اقتباسا مختصرا من خطاب للقديس ايوجنيوس Eugenius المتوفى ٥٠٥ م •

أما بالنسبة للكتب الثمانى الأخيرة فان الأمـــور

---

1. Bury : History of the Later Roman Empire, V. I, p. 347.

عرف سيدونيوس بصدق ايمانه حتى تولى منصب أسقف كليرمونت • وعلى الرغم من ذلك فقد أعتاد أن يكتب فى أوقات فراغه رسائل جميلة لأصدقائه تفيض بالاتجاهات الكلاســـــيكية والوثنية وأن امتازت بروحها المسيحية الصادقة •

(د• عاشور : أوربا العصور الوسطى ، حـ ٢ ، ص ٢٢٨) •

كانت صعبة جدا • فجريجورى يشـير الى ايوزيب مرة ، ويعطى جملة من أوروسيوس وواحـدة من سيدونيوس أبوليناريس ، كما قـورنت الخطـابات المفقودة لفريولوس Ferreolus المتوفى ٥٨١ م أسقف Uzes بتلك الخاصة بسدونيوس أبوليناريس • كذلك أشير الى سلبكيوس سفروس ، أسـقف بورج Bourges المتوفى ٥٩١ م على أنه شاعر • كما أن هناك فقرة واحدة ترجع الى فينانتيوس فورتيوناتوس (من حوالى ٥٣٠ ـ ٦٠٠ م) وهو الذى أصبح أسقفا لبواتييه (١) •

والحقيقة أن جريجورى أورد لنا سـبعة وثائق تاريخية هامة فى حوليته عن تاريخ الفرنجة ، كلها موجودة فى الكتابين التاسع والعاشر وأهمها :

١ ـ خطاب التأسيس الذى أرسل الى كل الأساقفة المجاورين من القديسة راديجوند ، عنـدما كانت مشغولة بانشاء دير للراهبات فى بواتييه •

٢ ـ الرد الذى أرسل الى القديسة راديجوند من سبعة أساقفة (٢) •

---

1. L. Thorpe : Op. Cit., pp. 27-29.

(٢) الاسقافة هم :

= Eufronius of Tours, Praetextatus of Rouen;

٣ ـ نص معاهدة أنديلوت المعقـــودة بين الملك جنترام والملك شلدبرت الثانى فى ٥٨٧ م ٠

٤ ـ الخطاب الذى سلمه البابا جريجورى لسكان روما الذين أصابهم الطاعون قبل ترسـيمه مباشرة فى ٥٩٠ م ٠

٥ ـ خطاب المواســـاة والتأييد المرســـل الى Gundegisil — أسقف بوردو فى ٥٩٠ م بواسطة عشرة من رفاقه الأساقفة أو المطارنة ، فقـــد كان المطران فى قلق شديد بسبب فشله فى اخضاع الثورة التى قامت فى دير القديسة راديجوند للراهبات فى بواتييه (١) ٠

٦ ـ الحكم الذى صـــدر فـــى ٥٩٠ على الأم Leubovera (رئيسة دير الراهبات) والراهبتين

=

Germanus of Paris, Felix of Nantes, Domitianus of Angers, Victorius of Rennes and Domnolus of Le Mans. (L. Thorpe : Ibid., p. 29.

(١) كان الاساقفة الذين وقعوا على الخطاب هم :
Aetherius of Lyons, Syagrius of Autun, Aunacharius of Auxerre, Hesychius of Grenoble, Agricola of Nerves, Urbicus of Riez, Felix of Belley, Veranus of Cavaillon, Felix of Châlons-sur-Marne and Bertram of Le Mans. (L. Thorpe : Ibid., p. 30).

كلوتيلد وباسينا ، بواسطةجريجورى نفسه، ومطران تـــور ، Ebregisel أسقف كولون ، Maroveus أسقف بواتييه ، و Gundegisil مطران بوردو ، وأساقفة آخرين من اقليم بوردو ٠

٧ ـقوائم الصيام والصلوات الخاصة بالكاتدرائية والكنائس الأخرى فى تور ٠

والحقيقة أن هذه القائمة تعتبرمبهمة ومثيرة للغاية ويرجع ذلك الى أن تلك الوثائق السبع لم تحفظ فى مصدر آخر سوى تاريخ الفرنجة ٠

وقد أقفل جريجورى العلاقات الشخصية بواسطة الوثائق رقم ٣ ، ٦ ، ٧ ٠ أما الوثيقة الرابعة فمن المحتمل أنهـا حملت من رومـا سنة ٥٩٠ م بواسطة الشماس Agiulf سواء على مخطوط رقى أو فى رأسه ٠ أما الخطابات الثلاثة التى تخص دير القديسة راديجوند فى بواتييه ، فربما يكون جريجورى قـــد نسخها من سجلات جماعة الرهبان الخاصة به فى تـــور (١) ٠

وثمة مؤثرات أخرى على شـــــخصية وكتابات

---

1. L. Thorpe : Ibid., pp. 29-30.

جريجورى نود أن نوجه النظر اليها ، ذلك أننا نعرف أن تعليمه كان اكليريكيا كنسيا أكثـــــر منه دنيويا مدنيا . فقد مر بنا كيف تلقى تعليمه من سن الثانية عشر فصاعدا بواسطةرئيس الأساقفة الرحيم أفيتوس في كليرمونت فيراند . والواقعأن النصوص اللاتينية التى درسها وهو صبى كانت : المزمور ، الاناجيل ، المراسيم والرسالات الانجيلية ، هذا بالاضافة الى أعمال كبار الكتاب الكلاسيك فى روما القديمة بقدر ما كان متاحا له .

وبهذا نخرج بنتيجة هامة فى هذا الجزء هى أن التوثيق التاريخى والادبى الذى خلف تاريخ الفرنجة لا يمكن اغفاله (١) .

المعرفة الشخصية :

اذا تطرقنا الى معرفة جريجورى الشخصية ومدى مشاركته فى الاحداث نجده قد مر بعدة مراحل :

الاولى : فيما يتعلق بالاخبار عن الاحـداث التى قبل غزو ثيودبرت Theudebert لايطاليا ٥٣٩ م

1. L. Thorpe ... Ibid., p. 30.

استطاع جريجورى أن يعتمد على المعـرفة المستمدة من الكتب الى جانب الاخبار الشفوية التى سمعها ٠

الثانية : قبل سنة ٥٦٣ م أى قبل ترسيمه شماسا ٠ وكانت ملاحظاته عن الأحداث القومية ومشاركته فيها مازالت قليلة والواقع أنه كان له العديد من الاصدقاء فى مناصب عالية ، وهذا كان له أثره الواضح فيما كتب ٠

الثالثة : وهى مرحلة العشر سنوات قبل تعينـه أسقفا أى من ٥٣٦ الى ٥٧٣ م ، فنجد أنه كان لديه بالتأكيد وسائل للوصول الى أخبار موثوق بها حتى لو كان هو نفسه قد استطاع أن يلعب دورا صغيرا أو لم يشارك فى الأحداث التى وصفها ٠

الرابعة : وهى التى يظهر فيها بوضوح اسهام جريجورى الشخصى ونرى ذلك جليـا فى الكتب من الخامس الى العاشر ٠

لكن ما هى نوع الأحداث التى عاصرها جريجورى وكتب عنها ؟

١ ـ كان هناك العديد من الأحداث العظيمة ذات الأهمية القومية مثل : وصـــول ميروفتش الى تور

ليبحث عن ملاذ ، مجمع باريس الذى ابتلى وامتحن فيه بريتكستاتوس Praetextatus أسقف Rouen الزيارة التى قام بها جريجورى للملك شـــلبريك فى نوجنت Nogent على المارن Marne ، الفترة التى قضاها فى أورليان مع الملك جنترام ، الاقامة فى متز مع شلدبرت ، والسفارة الى الملك جنترام فى شالون على الساؤون ، ومحاكمة كلونيلد وباسينا التى كان جريجورى أحد قضاتها الى غير ذلك مـــن الأمور الهامة ٠

٢ ـ السلسلة الطويلة للشئون المحليـــة فى تور مثل : السرقة فى كنيسة القديس مارتن ، والتخريب والتدمير فى كل الضواحى بواسطة الدوق بيرولف Berulf ، المنـــازعات مع ليوداست Leudast المشاجرات بين سيشار Sichar وأســـتريجيزيل Austregesil وشرامنيذند Chramnesind ، والفساد والاضطراب فى دير Ingitrude .

٣ ـ فى النهاية هناك حشد من الأحداث الأقـــل أهمية التى تعتبر فى نفس الوقت ممتعة ومشوقة الى أبعد حد ، لكنها تعالج أحيانا بشىء من التطـــويل والاستطراد المفرط بالمقارنة بعـــدم أهميتها مثل : نزاع جريجورى الشخصى مع فيلكس أســـقف نانت والخلاف مع الملك شلدبريك على التمييز بين الأشخاص ،

وأخيرا التقرير الذى وضعه جريجورى عن محنتـه الشخصية فى Berny-Rivière بسبب اتهامه بتشويه سمعة الملكة فريديجوند .

والحقيقة أنه من الممكن أن نذكر قوائم أكثر من ذلك اذا رغبنا ، لكن هذه القوائم السابقة تعتبر أكثر من كافية لتبرهن على الطبيعـــة الشـــخصية لرواية جريجورى فى الكتاب الخامس الى العاشر من حوليته أو تاريخه (١) .

مصداقية جريجورى :

والآن نتساءل عن مدى الصدق المتوافر فى كتابة جريجورى ؟

هنا نجد المؤرخين قد انقسموا الى فريقين بالنسبة لهذا الموضوع ، فريق يؤكد صدق جريجورى الذى لا يقبل الشك ، وفريق آخر ينتقد فيه بعض الأمور .
أما الفريق الأول فهو الذى يرفع من قدر جريجورى بشدة ومنهم كلود فوشيه Claude Fauchet فى القرن السادس عشر وهو الذى يشير اليه بأنه « أبو تاريخنا الفـــرنسى "Le Père notre Histoire Françoise

---

1. L. Thorpe : Ibid., pp. 31-32.

بل انه يعتبره « أكثر المؤلفين قدما وصدقا ممن تكلموا عن الملوك والحكومات الفرنسية» أما أمبير J.J. Ampère فى القرن التاسع عشر الميلادى فقد قال عنه أنه كان « هيرودوت الهمجية أو البربرية
"L'Hérodote de la barbarie

وقد استند هذا الفريق الى أن جريجـــورى كان مســجلا دقيقا للاحداث ، متسما دائما بالمثابرة فى بذل الجهد • وأن أكثر ما وصفه رآه بعينيه •

ان تاريخ الفرنجة يحوى العديد من الكتب التى راجعها جريجورى بدقة وحيثما جمع أخبارا شفوية، فانه كان يضيف الكلمات « Ferunt . Fertur » بمعنى أنه يقال ، انهم يقولون ، ليجعل الأمر واضحا أنه يروى أو ينقل آراء الآخرين • أما عندما يكون غير واثق من شىء ما ، فانه يعترف بذلك •

والواقع أن نتائجه كانت مشوشة قليـــلا ، لأنه يضعها وسط العرض لا فى نهايته ، الا أن تاريخه يعتبر أكثر سحرا بالحقيقة التى تقول ان جريجورى كان يقتبس أدلته وبراهينه من كتب لم نسمع عنها •
فى النهاية نجـــد جريجورى يتفق بحمـــاس مع الأستاذ ر•و• سوذرن R.W. Southern فى قوله « ان المؤرخ يهدف الى اضاء نفس الحاجات العـــاطفية

وفكرية مثل الروائى والشاعر » • من ناحية أخرى فان جريجورى نادرا ما يطلق العنان لاشــباع رغباته بفقرات جميلة منمقة ، حافلة بالمحسنات البيانية التى تستخدم فى النص الادبى ، وعندما يفعل ذلك نكون واثقين أنه ميال للسخرية أكثر من اخفاء الحقيقة عن عمد بالأسلوب الخيالى (١) •

أما الفريق الثانى فهو الذى استرسل فى انتقاداته وتعليقاته المعاكسة •

لما كان جريجورى من الغال الرومان فانه اتهم بواسطة باتريوتك تيــوتون Patriotic Teutons بأنه غير منصف للميروفنجيين ، من ذلك أنه بالغ فى وحشيتهم (٢) •

والواقع أن جريجورى كان متحيزا فى كتاباته الى ملوك أستراسيا التى كانت تور تخضع لها ، ضــد أعدائهم من ملوك الفرنجة الآخرين وبخــاصة ضــد شلبريك ملك نستريا (٣) • كذلك تحامل جريجورى

---

1. L. Thorpe : Ibid., pp. 33-34
2. L. Thorpe : Ibid., p. 34.

(٣) د• اسحق عبيد : معرفة الماضى ، ص ١٥٩ • والواقع أن تور ظلت تخضع للملك سيجيبرت حتى اغتيل فوقعت تلك المدينة تحت سلطان شلبريك (٥٧٥ ـ ٥٨٤) • (د• اسحق المرجع السابق ص ١٥٧) •

للغاية ضد الأريوسيين ، ويرجع هذا الموقف الى أنه كان أسقفا كاثوليكيا متشددا فى كاثوليكيته(١) ٠

كذلك اتهم جريجورى بأنه نظر الى العالم المحيط به من خلال نوافذ مبنى الكنيسة فى تور وانغمس أحيانا فى بعض الثرثرات الصغيرة المحلية ٠ لكن اذا أردنا أن نرد على من يردد هذه التهمة بقولنا ان هذا كان شيئا لا يمكن تجنبه من جانب جريجورى ، لأنه فى ذلك الوقت كانت الأمور لا يمكن النظر اليها بعين الراحة اذا وضع الرجل العادى جنبا الى جنب مع الأمراء الأقوياء فى كتب التاريخ ، وبمعنى آخر فانه يجب علينا أن نأخذ بعين الاعتبار فكرة أو مفهوم الرسام فى التوازن بين كتل ألوانه ٠

واذا كان جريجورى قد اتهم أيضا بأنه كان دائما يرى الأمور من وجهة نظر الكنيسة فهذا كان شيئا طبيعيا تماما أيضا ، لهذا نجده يغفر لبعض الملوك والامراء عيوبهم فى تاريخه لما قدموه من خدمات جليلة للكنيسة وحماية مبانيها ٠

يقال أيضا ان جريجورى سجل العديد من المحادثات الجريئة المفعمة بالحيوية التى لفقها

---

(١) د٠ اسحق عبيد : معرفة الماضى ، ص ١٥٩ ٠

واخترعها بنفسه لتلائم ظروف الساعة ، لكن ذلك فى الحقيقة كان نوعا من الحيل الدراميـة المسرحية ، التى ظلت تستخدم على نطاق واسع بواسطة المؤرخين الانجليز فى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى (١) ٠

كذلك أحيانا يتكلم النقاد عن سذاجة وبساطة جريجورى "Naivété" لكن الاستاذ كريستيان بفستر يقول : « يجب ألا نضلل أنفسنا ، لأن تلك السذاجة تعتبر نوعا من الادب المدروس بتأن » (٢) ٠

فى النهاية نجد جريجورى ينتقد بسبب بعض الأخطاء التى وردت فى تاريخه ، فمثلا قال جريجورى أن البوين Alboin خرب ايطاليا لمدة تسع سنوات فى حين أنه كان يجب عليه أن يقول أربع ، ثم انه عين بالاسم شخصا سماه بول Paul وجعله خليفة لأبتاشر Aptachar أو أوثارى Authari ملك اللمبارديين ، وهو شىء لم نسمع عنه أبدا من أى مؤرخ آخر ٠ كذلك جعل حكم الامبراطور جستين الثانى لمدة ثمانى عشرة سنة بينما هو فى الحقيقة من ٥٦٥ الى ٥٧٨ م فقط ٠

1. L. Thorpe : Op. cit., pp. 34-35.
2. Christian Pfister : The Cam. Med. Hist., V. II, pp. 156-157.

والواقع أن هذا الفريق أخطأ كثيرا فى أحكامه ، أولا لأن المؤرخين لم يكونوا مخطئين فى حقائقهم ، وثانيا لأن هذا الفــريق لم يأخذ فى الاعتبـــار تلك الصعوبات التى رزح تحتها مؤرخو القــرن السادس الميلادى ، وتلك الهفوات التى حدثت من حين لاخر كانت قليلة فى عددها ، وكان من السهل تصحيحها ، بل كان من المؤكد توقعها ، لكن لم يكــن من الممكن التغاضى عنها ٠

أخيرا قيل ان جريجورى ضللنا عن غير عمد فى بعض رواياته أو تعبيراته التى كتبها ٠ حتى بالنسبة للاحداث الرئيسية التى قام هو فيها بنفســه بدور قيادى ، لكن ليس لدينا فى الغالب أى مصدر آخر معاصر ، نســـتطيع أن نضـــبط تلك الروايات عن طريقه (١) ٠

هنا لا يسعنا فى نهاية هــذا الجزء الا أن نورد بعض التعليقات التى قيلت فى تاريخ الفرنجة ككل ، لنستشف من ورائها مدى صدق جريجورى فى عرضه لما شاهده بنفسه ٠ فنجد أن Betty Radice بـــتى رادس محررة البنجوين كلاسكس Penguin Classics تقـــول عنه : غالبيته يعتبر شاهد عيان للســـلوك الوحشى أو المتعطش للدمـــاء للملوك الميروفنجيين

1. L. Thorpe : Ibid., p. 35.

الأربعة ولرفاقهم الهمجيين »(١) . أما لويس ثورب مترجم تاريخ الفرنجة من اللاتينية الى الانجليزية(٢) .

---

1. Betty Radice : Introduction of the History of the Franks, translated by Lewis Thorpe.

(٢) ترجم تاريخ الفرنجة عدة مرات عن أصله اللاتينى ، فمثلا ترجم الى الفرنسية ونشرت الترجمة الاولى بواسطة Claude Bonet فى سنة ١٦١٠ م . تبعه فى الترجمة رئيس دير Marolles فى سنة ١٦٦٨ م ثم فرانسوا جويزو François Guizot فى ١٨٢٣ م . ثـم بواسطة J. Guadet and N.R. Taranne فى ١٨٣٦ - ١٨٤١ م بواسطة Henri Bordier فى ١٨٥٩ - ١٨٦١ م ثم ترجمة أحدث بواسطة Robert Latouche فى ١٩٦٣ - ١٩٦٥ . أما الترجمة الالمانية ذات القيمة المعترف بها فكانت بواسطة W. Giesebrecht فى ١٨٥١ م . وفى ١٩٢٧ نشر O.M. Datton ترجمة انجليزية ممتازة مع مقدمة وافية للغاية وملاحظات وافرة . وقد أعيدت طباعة تلك الترجمة فى ١٩٧١ م . أما الترجمة الانجليزية التى قام بها لويس ثورب ، والتى قمنا بدورنا بترجمة الأجزاء التى تهمنا منهـا سـواء بالنص أو كمقتطفات ، فهى ترجمة صحيحة مطابقة للأصل اللاتينى ، لهنرى أمون وجاستون كولون ، الى جانب استفادة ثورب من كل الترجمات التى سبقته سواء بالفرنسية أو الألمانية أو الانجليزية (L. Thorpe : Ibid., p. 54)

ولويس ثورب هو أستاذ الفرنسية فى جامعة نوتنجهام من ١٩٥٨ الى ١٩٧٧م . كان رئيسا للفرع البريطانى فى International Arthurian Society ومحررا أيضا لدراسات نوتنجهام للعصور الوسطى ودراسات نوتنجهام الفرنسية ، نشر العديد من المقالات والكتب التى تحوى العديد من =

فيقول : « كان تاريخ الفرنجة ملطخا بالدم ٠٠٠ ، انه يعيد صرخات الحيوانات والرجال والنساء الذين عذبوا حتى الموت ، ومع ذلك فان جريجورى لم يعترض أو يشك فى تلك الطريقة لانتزاع الاعترافات ، وتوريط الشركاء فى التآمر ، أو ببساطة ارضاء الرغبة فى اراقة الدم للملكات والملوك » (١) ٠

أما جبريل مونود Gabriel Monod فيقول عنه انه « كتاب نادر رائع خيث أن المؤلف نفسه لم يكن مثار الاهتمام على الاطلاق بالشخصيات العظيمة التى قابلها على المسرح » ٠ بينما ذكر دالتون O.M. Dalton عبارة أكثر وضوحا وانصافا لجريجورى وهى أنه « كان أحيانا يصرح أو يقرر أشياء غير صادقة لكن ذلك يكون راجعا ، اما لأنه لم يكن يعرف الحقيقة أو لأنه ضلل بواسطة مصادره ، فلم يكن مذنبا أبدا بافتراء أو كذب » (٢) ٠

الموضواعت مثل : الحرب الفرنسية ، حياة شارلمان ، تاريخ ملوك بريطانيا وغيرها من الموضوعات التى تهم الباحثين فى تاريخ العصور الوسطى ٠ وقد توفى ثورب فى ١٠ اكتوبر ١٩٧٧ ٠

(Betty Radice: Introduction of the History of the Franks).

1. L. Thorpe : Op. Cit., p. 15.
2. L. Thorpe : Ibid., pp. 35-36.

المؤرخون المعاصرون لجريجورى :

١ ـ فينانتيـــوس فورتيوناتــوس Venantius Fortunatus (من حوالى ٥٣٠ الى ٦٠٠ م)(١) :

كان المؤرخ الوحيد المعاصر الذى كانت له أهميته فى غاليا ، وكانت معظم أعماله شعرية ، كتب العديد من المؤلفات عن حياة القديسين بالنثر والشعر ، مثل حياة القديس مارتن فى أربعة كتب · كان السبب الرئيسى لشهرته هو كتابه المسمى Carmina وهـــو سلسلة من القصائد عن وضع المجتمع وقتئذ ، وهو مقسم الى احدى عشرة كتابا ، فى الكتاب الخامس الفصل الثالث كتب فورتيوناتوس الى أهالى تور فى ٥٧٣ م لهينأهم باختيار جريجورى أسقفا لها · كما وجه الى جريجوى نفسه اثنتا عشرة قصـــيدة فى الكتاب الخامس واحدى عشرة قصيدة فى الكتـــاب الثامن ، الى جانب قصيدة فى الكتاب التاسع ·وكان فورتيوناتوس يبعث الى جريجورى فى العديد من تلك القصـــائد بتحياته وشكره على الهبات التى كان

---

(١) أشـار اليه جريجورى بالقسيس فورتيوناتوس · ولـد قـرب Treviso ، ودرس فى Ravenna فى ايطاليا وجاء الى غاليا فى سنة ٥٦٤ أو ٥٦٥ لزيارة مقبرة القديس مارتن فى تور · استقر فى بواتييه حيث أصبح الصديق الحميم للقديسة راديجوندولأجنس Agnes أول رئيسات لدير الراهبات بها · (L. Thorpe : Ibid., p. 36).

يتلقاها منه · وفى قصائد أخرى بحث أمور أكثـــر أهمية مثل هداية اليهود فى كليرمونتفيراند بواسطة الأسقف أفيتوس ، والمشاغبات التى وقعت فى دير راهبات بواتييه ·

وتعتبر قصائده مبهجة سارة فى قراءتها ، لكنهـا فى الحقيقة لا تضيف سوى القليل عن المعرفة عن الأحداث العظيمة لتلك الفترة (١) ·

والواقع أن أشعاره بثرائها بالتلميحات والاشارات الميثولوجية ، (أى التى لها علاقة بالأساطير والخيال) أرضت ذوق الأمراء والملوك الفرنجة الميروفنجيين ، الذين كان يتملقهم ويداهنهم الى حد ما · ولقد نظم المدائح فى كل ملوك عصره بلا استثناء (شاريبرت، سيجيبرت وشـلبريك) ، حتى أنه كان سخيـــا مع فريديجوند بمدائحه التى قدمها اليها · ومع ذلك فقد كتب بعض الترنيمـــات والترتيـــلات التى لاتزال الكنيسة تستخدمها(٢) ·

٢ ـ ماريوس Marius (من حوالى ٥٣٠ ـ ٥٩٤ م) :

---

1. L. Thorpe : Ibid., p. 36.
2. Christian Pfister: The Cam. Med. Hist., V. II, p. 156.

كان أسقفا لأفنش Avenches (على بعـــد كيلو مترات قليلة شمال غربى فريبورج فى سويسرا) • وهو مثل فورتيوناتوس كان معاصرا تقريبا لفترة جريجورى • ألف التاريخ الذى أضيف الى ترجمة جيروم ، والذى كان تكملة لتاريخ ايوزيب • وقـــد وضع الأسماء والأحداث فى قـــوائم من ٤٥٥ الى ٥٨١ م • ويعتبر تاريخه موجزا بليغا جافا غـــير مشوق • لكن أهميته تكمن فى أنه كتب من جهةالنظر البرجندية ، عرف ماريوس الملك جنترام جيدا مثـــل جريجورى ، ويقال ان الرجلين تقابـــــلا فى مجمع (شالون على الساؤون) فى ٥٧٩ م • ومما هـــو مؤكـــد أن مـــاريوس استخـــدم جـــزءا من تـــاريخ جريجورى عندما كان يؤلف تاريخه ، الذى كتبه فى نهاية حياته(١) •

٣ ـ حنا البكلارى John Abbot of Biclar الذى توفى ٦٢١ م :

تقع بكلار قرب برشلونة ، كتب حنا تاريخا قصيرا يغطى الفترة من ٥٦٧ الى ٥٩٠ م • وهو لا يقارن بأى حال من الأحوال بتاريخ جريجورى • وتكمـــن أهميته فى أنه كان كاثوليكيا وليس أريوسيا ، وأنه

---

1. L. Thorpe : Op. Cit., p. 37.

وصف الأحداث من وجهة نظـــر القوط الغربيين ٠ أعطى حنا البكلارى تقريرا موجزا عن حكم ليوفيجيلد Leuvigild ملك القوط الغربيين فىأسبانياوالسنوات الأولى لحكم ابنه روكاريد Recared (١) ٠

٤ ـ التاريخ المسمى بتاريخ فريديجار
Chronicle of Fredegar

ألف بواسطة ثلاثة كتاب مجهولين فى السـنوات ٦١٣ ، ٦٤٢ ، حوالى ٦٥٨ م ٠ وهو يعتبر اعادة صياغة لأجزاء من تاريخ جريجورى ، بل انه زيد فى مجموع سنواته حوالى سبعين سنة أخرى ، ومن المعتقد أنه قد تم تأليفه فىأفنش ، وهو يصف الاحداث من وجهة النظر البرجندية ، وهو يحوى أربعة كتب، جـــزء كبير من مادة الكتاب الثالث مأخـــوذة عن جريجورى ٠

ووسط هذه المصـادر الأربعـة للمعلومات يضع لويس ثورب تاريخ فريد يجار بجانب تاريخ الفرنجة، ويذكر أن أهم نتيجة للفحص السريع لأعمال الثلاثة المعاصرين لجريجورى هى بوضـوح أن جريجورى يقف كمؤرخ فذ لا يضارع فى عصره(٢) ٠ واذا كان

---

1. L. Thorpe : Ibid., p. 37.
2. L. Thorpe : L. Ibid., p. 38.

كريستيان بفستر يؤكد نفس المعنى عندما ذكر : « انه اذا كان فورتيوناتوس هو الشاعر الوحيد أو المنفرد فى العصر الميروفنجى ، فان جريجورى يعتبر تقريبا المؤرخ الوحيد لنفس العصر » (١) • فانه فى نفس الوقت يتعجب من وضع تاريخ فريديجار بجانب تاريخ جريجورى ويعتبر أن هناك فرقا واضحا يفصل جريجورى عمن أكملوا أو استأنفوا الكتابة التاريخية بعده • ثم يصرح بأن تاريخ فريد يجار يتكون من قصاصات وأجزاء من مصادر مختلفة (٢) •

لغة جريجورى :

قبل الكلام بشىء من التفصيل عن لغة جريجورى فى كتاباته لابد أن ننوه أنه لم يكتب من فراغ ، بل كان ذلك نتيجة للعديد من المعارف التى اختمرت فى ذهنه ثم جاء الوقت المناسب لتجد لها متنفسا على شكل مؤلفات مختلفة • وهنا يجب أن نشير الى أنه تأثر الى حد بعيد بالكتاب الذين سبقوه وبأعمال معاصريه الى جانب أن لاتينية الكتاب المقدس كان لها تأثير عميق فى لغته •

---

1. Christian Pfister : The Cam. Med. Hist. V. II, p. 156.
2. Christian Pfister : Ibid., V. II, p. 157.

والواقع أنه ليست هنـــاك أية عـــلامة على أن جريجورى أملى تاريخ الفرنجة على أحـــد ليكتبه ، وبالتالى فليس هنـــاك شك فى أنه كان لديه كتبـــه ينسخون نسخا واضحة خالية من العيوب لما يكتبه بخط يده ٠

وباعتبار أنه كان رجلا مشغولا ، فانه كان أحيانا يتباطأ فى تسجيله للاحداث ، ونحن نستشف ذلك من عبارته « العديد من الاشياء العظيمة ظلت تحدث ، بعضها حسن وبعضها سىء ٠٠٠ » (١) ٠

لكن ما هى اللغة التى كتب بها ؟

لقد كتب جريجورى كما تكلم ٠ وتعتبر لغته هى لغة الكلام العـــادى اللاتينى فى غاليا فى القـــرن السادس (٢) ، أى اللغة الدارجة العامية ٠ وبهذا فليس هناك أى وجه للمقارنة بين لاتينيته وبين اللغة الكلاسيكية لقيصر وشيشيرون ، كما أنه من الظلم والجور أن نقارن لاتينيته باللغة اللاتينيـــة لانهارد

1. L. Thorpe : Op. Cit., p. 38.

(٢) أشارت بتى رادس الى ذلك بقولها : « أنه تكلم وكتب لاتينية القرن السادس كما لو كانت لغته الوطنية » ٠
Betty Radice : Introduction of the History of the Franks.

Einhard أو غيره من كتاب النهضة الكارولنجية(١)

تعنى لغته الدارجة هذه ، اللغة اللاتينية بعد أن حررت نفسها بالتدريج من أى قيد ، وتقدم فيها علم الصرف Morphology من البنية التركيبية الى البنية التحليلية ، حيث حلت حروف الجر وأدوات التعريف بصورة واسعة محل تصريفات الاسماء القديمة ٠

أشار جريجورى الى لغته مرة واحدة فى تاريخه عندما كتب « لاتينيتى قد تكون ريفية My Latin may be provincial ، لكننى أستطيع أن أمر بصعوبة وفى صمت على الأشيـــاء التى أراها أو التى قيلت لى بواسطة الثقة »(٢) ٠

لكن بالرغم من اســتخدام جريجــورى للاتينية الدارجة ، فانه كان يشكو ويتذمر عندما يتكلم شخص آخر بطريقة خاطئة ٠ فقد كتب مثلا عن دجال بيجورا Bigorra : « انه يتكلم لغة العامة ، كانت لهجتــه

---

1. L. Thorpe : Op. Cit., pp. 38-39.

يعلق الاستاذ كريستيان بفستر على ذلك بقوله : ان جريجورى كان على أية حال شيشرونى ، أى ينتمى الى مدرسة شيشرون ، لكنه كان يكتب اللغة التى كانت تستخدم للكلام فى زمنه ٠

(Christian Pfister : Op. Cit., V. II, p. 157)

2. L. Thorpe : Op. Cit., pp. 39-40.

غير بارعة ، وكلماته التى يستخدمها دارجة ، ولم يكن من السهل تتبع ما يحاول أن يقوله » .

هنا نود أن نشير الى نقطة هامة وهى أنه بالرغم من أن جريجورى كان محاطا بالفرنجة الذين يتكلمون اللغة الفرنجية أو يجعلون لها الأسبقية على اللاتينية، فانه ليس هناك أى دليل على أنه كان يستطيع هو نفسه التكلم باللغة المحلية الفرنجية(١) ، كما أنه لم يشر أبدا الى اليونانية الا عندما أشار الى اضافة الملك شلبريك لأربعة أحرف يونانية جديدة هى : (w, ae, the, Wi) الى اللاتينية ، وأن الملك أرسل بتعليماته الى كل الممالك بأن يتم تدريس الأحرف الجديدة لكل الصبية بالمدارس ، وأن تحل الأحرف الجديدة كذلك فى الكتب محل القديمة التى كانت على الترتيب ω, Ψ, Z and Δ. (٢) .

وان دل هذا التصرف من شلبريك على شىء فانما يدل على مدى تشرب الفرنجة للثقافة اللاتينية ، وادخال شلبريك لتلك الاحرف الجديدة كان على حد تعبير الاستاذ فشر « امعانا فى التفاخر والدلالة على

---

(١) يؤيد هذا ماذكره لويس ثورب من أنه لم يعثر فى كل تاريخ الفرنجة أثناء ترجمته الا على كلمتين فرنجيتين فقط .
(L. Thorpe : Op. Cit., p. 45).
2. L. Thorpe : Ibid., pp. 40-41.

مبلغ ما أكتسب من العرفان » مع أنه هو الذى نعته جزيجورى نفسه بأسوأ النعوت ، حين سماه نيرون عصره ، تشبيها له بالامبراطور الرومانى المعروف ، كما وصفه بأنه هيرود زمانه ، اشـــــارة الى الملك اليهودى الشـــهير فى فلسطين ، ابان مولد المســيح عليه السلام(١) ٠

ومهما كان الحال ، فان كل ما يهمنا أن نؤكده هنا هو أن جريجـــورى كان يعتز بلغـــته اللاتينيـــة حتى ولو كانت من اللاتينية الريفية أو العامية ٠

أســلوب جريجورى :

ننتقل الى الحديث عن جانب مهم ومشوق للغاية بالنسبة لكتابات جريجورى عامة ولتاريخ الفرنجة خاصة ، وهو أسلوب جريجورى ، فأســــلوبه يعتبر باختصار شديد ، صريحا ، بسيطا لا زخرفة فيه ٠

فنظرا لأن كلمات جريجــــورى كانت لها وظيفة السرد البسيط للأخبار ، فهى تحكى قصة ، تسجـــل حكما ، وفى مناسبات نادرة جدا تعبر عن انفعال أو عاطفة ، لذلك كانت السمة الغالبة عليها ألا تكون

---

(١) فشر : ترجمة د٠ مصطفى زيادة ، د٠ الباز العرينى : تاريخ أوربا العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ٧٣ ٠

مذكرات مزخرفة ، وكان جريجورى يوجه كلماته فى هذا الاتجاه أو ذاك مثل الجندى المتمرس (١) ٠

والواقع أن جريجورى نفســه كان مدركا لمدى جفاف أسلوبه فقد كتب فى مقدمة تاريخ الفرنجة : « أسلوبى غير مصقول أو رقيق » ٠ ثم كرر ذلك وأكده فى نهاية الكتاب عندما حان وداعه لنا فقد قال : « أنا أعرف جيدا أن أسلوبى فى تلك الكتب تنقصه الرقة والصقل ٠٠ واذا بدا لكم أن ما كتبته فظ غير مألوف، فأنا أتوسل اليكم ألا تقسوا على كتبى » (٢) وبمعنى آخر ألا تحرفوها ٠

وهكذا كانت أهم مزايا جريجــورى كمؤرخ أنه « يعترف بنقاط ضعفه ومنها لاتينيته الخشنة »(٣) ٠

أما بالنسبة لتاريخ الفرنجة فاننا نجد العديد من الأمور الايجابية التى تستوقف الفرد عن أســلوب جريجورى ، فقد كان يكثر من الاقتباسات من الكتاب المقدس ، وعندما كان يكتب وهو فى نوبة غضب فانه

1. L. Thorpe : Op. Cit., p. 41.

وباعتبار أن كلمات جريجورى كانت غير مزخرفة لذلك أشار اليها ثورب بأنها كانت مكسوة باللون الكاكى العسكرى البعيد عن الزخرفة والتنميق ٠

2. L. Thorpe : Ibid., p. 41.

(٣) د٠ اسحق عبيد : معرفة الماضى ، ص ١٥٩ ٠

كان يستعمل احدى الحيل القديمة المعروفة للمدافعين المسيحيين • ويستنتج استنتاجات روحية وأخلاقية لا تحصى عن الاحداث التى حدثت منذ زمن بعيد ، مفضلا ما حدث فى أيام العهدين القديم والجديد • وللتأثير فى الآخرين فانه كان يتحرك بسرعة وثبات من سياق الماضى الى الحاضر • علاوة علىذلك ، وفى كل صفحة تقريبا يخبرنا بمحادثات ، هى عبارة عن كلام روحى مباشر لم يسمع به أحد من قبل ولم يسجله أحد بالمرة ، أى أنه من خلقه وابتكاره هو لاقناع قرائه •

كانت معظم مقارناته بسيطة فعند كلامه عن المعمودية شبه كلوفس بقنسطنطين ، ليودست Leudast عدوه اللدود بأنه متكبر مغرور مثل الطاووس ، وشلبريك بأنه « نيرون وهيرود عصرنا» • هذا وقد كان جريجورى خياليا جدا فى بعض المناسبات مثل قوله : « تراكم قاع النهر لأعلى بجثثهم ••••وعبر الفرنجة عليهم الى الجانب الآخر كما لو كانوا يسيرون على قنطرة » •

يضاف الى ذلك اعطائه حكمه من وقت لآخر مثل: « قدم النصيحة الطيبة لمن يحبكولمن يكرهك ، سيقبلها صديقك حتى لو سخر منها عدوك » •

كذلك كان جريجورى يميـــل أحيانا الى الفكاهة والدعابة التى قد يهـــــدف من ورائها الترويح عن القارىء أو السخرية والتهكم . وهو ما سنذكره فيما بعـد .

كان بامكان جريجورى أن يخبرنا بحكاية قصيرة أو يصف لنا صداما موجزا مثل : كيف تنافس رجال بواتييه ورجال تور على جسد القديس مارتن ، كيف توفى أول ولد رزق به كلوفس وكلوتيلد بعد تعميده مباشرة ، كيف قطعت فريديجوند ثلاثة رؤوس بثلاثة فؤوس صوبت فى الهواء فى انسجام لتضـع نهاية عـــداء .

لكن هناك قصة واحدةطويلة حقيقية هى :الفضيحة فى دير بواتييه للراهبات وبوصف جريجورى لها ، لايستطيع أحد أن يختلف معه أو ينتقده . فهو يرافقنا فى البـداية الى الدير لنشاهد الموت المحزن والمثير للشفقة لدسكيولا Disciola ... مرت ســـنوات وماتت القديسة راديجـــوند وذهب جريجورى الى جنازتها ثم ماتت آجنس Agnes أول رئيسة لدير

الراهبات بدورها وحلت محلها ليبوفيرا Leubovera ثم بدأت الثورة الكبرى التى اتصل بها جريجورى فى الحال . وتستمر القصة فى الكتاب التاسع الفصول

من ٣٩ الى ٤٣ التى تحتوى على خطـــاب التأسيس للقديســة راديجوند ورد بالموافقة ووعد بالتأييد من سبعة أساقفة عولج ذلك الموضوع مرة واحـــدة في الكتاب العاشر الفصل ١ الى ١٧ ، الذى يشمل نص الحكم ضد كلوتيلد وباسينا • ثم عاد جريجورى الى نفس الموضوع مرة أخرى فى الكتاب العاشر الفصل العشرين انه الى حد بعيد أطول وأكثر التقارير أو الروايات تفصيلا فى تاريخه ، ولقد أيده بأكثر من دليل موثق عن أى حادث آخر •

واذا كان جريجورى أسـقفا بعيــدا عن ميادين القتال ، الا أنه كان يستطيع أن يصــف استعدادا عسكريا بتفاصيله الكاملة • عندما كان يرغب فى ذلك • وفى تلك العسكرية كان ينحـرف أحيانا الى أسلوب أكثر عامية كى يعطينا لغة الجندية •

لكن جريجورى لم يكن يهتم كثيرا برسم شخصياته رسما دقيقا ، حتى قيل « اننا لو تقابلنا مع برونهيلد أو ريجونث أو حتى فريديجوند فى الطريق فاننا لن نتعرف عليهن الا بعد وقت متأخر جدا ، لأن جريجورى لم يخبرنا شيئا عن شكل أى واحدة منهن أو مظهرها وطريقة تصفيفها لشعرها أو لون عينيها » •

والراجح أن ذلك ربما كان راجعا الى أن جريجورى

كان رجل دين تهمه الروح والشخصية قبل صفات الجسد · وربما أيد رأينا هذا أنه لم يفكر حتى فى وصف بعض المنقولات الثمينة عندما كان يقع بصره عليها (١) ·

هناك تعليق أخير على أسلوب جريجورى للويس ثورب نود مناقشته عندما قال : « وسط كل تلك المشاعر والأحاسيس المروعة المتعلقة بالتعذيب » ، التى وردت فى تاريخ الفرنجة ، فانه لا توجد كلمة تعليق واحدة من جريجورى (٢) ·

ونحن نتساءل هل كان مرد ذلك الى استقامة جريجورى رجل الدين وبعده عن أن يكون فضوليا ؟ أم كان ذلك حياد المؤرخ البعيد عن التلون والانحياز فيما يرويه ويؤرخه ؟ أم لأنه كان معاصرا للملوك

---

(١) يؤيد ذلك ما قيل من أن الملك جنترام كان يتناول الطعام مع جريجورى فى أورليان فقال له : « ان كل الأطباق التى تراها هنا كانت تخص الخائن Mummolus ، ولقد انتقلت الان ضمن ممتلكاتى بنعمة الله ، انا أمتلك خمسة عشر طبقا اخر كلها كبيرة مثل الطبق الذى تراه امامك · لقد احتفظت بهذا الطبق فقط مع طبق اخر يزنا مائة وسبعين رطلا · كان جنترام يأكل ويتكلم بشدة بينما لم يعره جريجورى الا اهتماما بسيطا · اذ لا يوجد وصفا لطبق الملك فى تاريخ الفرنجة ·
(L. Thorpe : Introduction, p. 45)

2. L. Thorpe : Ibid., p. 41-45.

والأمراء الذين شهد عهدهم مثل تلك الألوان القاسية من العذاب ؟

الدعابة والسخرية عند جريجورى :

بالاطلاع على رواية جريجورى لأحـــداث تاريخ الفرنجة المروعة يصاب القارىء بشىء من القنوط من زوال الابتسامة لديه ، لكن جريجورى لا يلبث أن يثير ضحكنا أحيانا بايراده نادرة طريفة ، وهذا بفضل براعته (١) ٠

والحقيقة أنه ليست هناك أمثلة للدعابة فى الكتاب الأول الى الرابع ، أما الكتاب الخـــامس فيبـــدأ باستهلاله : « أنا سعيد لأقول هنا أن الكتاب الخامس يبدأ حقا » ٠ ففيه يصف جريجورى الأحـــداث التى تواكب عصره ٠ وبذلك كانت مهمته أسهل بكثير ٠

ومن أمثلة دعاباته وسخرياته مثلا :

أنه عندما سار الكونت الهمجى روكولين Roccolen الى تور ليطلب طرد جنترام بوسو من ملاذه ، جرد رجاله احدى الكنائس من كل شىء ، « فعـــاقبه الله

---

1. L. Thorpe : Ibid., p. 46.

والقديس مارتن بمرض اليرقان Jaundice ،شيطان الملوك .. وأصبح لونه أصفر برتقاليا براقا » .

وخلال تبادله للرسائل مع فيلكس Felix أسقف نانت الذى كان هو مطرانه ، والذى كان يكـــرهه ، كتب الى فيلكس : « يالها من شفقة.... بدلا من أن يحمل اليك الزيت والسلع الأخرى حملت السفن اليك أوراق البردى ، التى أعطتك فرصـــة أكبر لكتابة خطابات تشهير وقذف الى قوم صيـــادقين صرحاء مثلى .. انها قلة الورق فقط هى التى قصرت كلامك الفارغ أو هراءك » .

أما عن المؤامرة الخاصة بتشويه سمعة Aetherius أسقف Lisieux والتى تناولها جريجورى فى نفس الكتاب فقد ذكر أن الأسقف تقاذف الكرة بسبب ما قيل عن علاقته باحدى النساء ، فأضاف جريجورى بتألم : « ان الشيطان فقط هو الذى وضع فى رؤوسهم فكرة توجيه مثل تلك التهمة ضد الأسقف لأنه كان فى حوالى السبعين من عمره ! » .

والواقع أنه فى كل تاريخ الفـــرنجة لم يتلاعب جريجورى بالأسماء الا مرة واحدة ، وبمعنى آخر لم يستخدم التورية الا مرة واحدة . فعندما قـــدم رئيس الدير المسمى Buccovald رسميا لمنصـــب

أسقفية Verdun ، فان جريجورى الذى كان لايحبه لم يمنع نفسه من أن يقول « لقد كانوا يقـــولون انه رجل متغطرس ، ومن هنا جاء لقبه Buccus Validus أى « المجادل الغبى القوى » .

كذلك كان جريجورى يلجأ للسخرية الاستنكارية أحيانا مثال ذلك عندما تكلم عن علاقات العداء بين الملكة فريديجوند وابنتها ريجونث . فقـــد ذكر أن الأخيرة « لم تتورع من أن تهين والدتها غالبـــا فى وجهها » وأنهما « كانتا تتبادلان الاهانات والصفعات واللكمات » . ثم نلمح سخريته من خلال قوله : «كانت المنـــازعات بين الاثنتين أكثر من مألوفة ... وكان السبب الرئيسى هو عادة ريجونثفى النوم مع الجميع وبلا استثناء » (١) .

---

1. L. Thorpe : 46-49.

عند كلام جريجورى عن فريديجوند وابنتها يورد لنا احدى صور ذلك الصراع التى كان يستنكر حدوثها فى مثل تلك الأماكن العالية المنزلة وهى باختصار : أن ريجونث كانت تمد زراعيها داخل احدى الخزائن لتأخذ منها بعض الاشياء عندما امسكت والدتها فجأة بغطاء الصندوق أو الخزنة وأغلقته بعنف الى أسفل على رقبتها . واتكأت عليه بكل قوتها ، وضغطت حافة الخزنة بشدة على حنجرة البنت حتى جحظت عيناها من رأسها . وكانت هناك احدى الخادمات موجودة فى الحجرة انذاك فصرخت مستغيثة بأعلى صوتها : « اسرعوا لقد خنقت سيدتى بواسطة والدتها حتى الموت » . (Ibid., pp. 48-49)

يبقى بعد ذلك عنوان الوداع الذى يعتبر خليطا من الجد الصادر من القلب والدعابة الاكثر من لاذعة • يناشدنا جريجورى ألا نخرب أو نعيد كتابة تاريخه ، وألا نسمح بالطبع بنشر الاقتباسات أو المقتطفات المختارة منه • لكنه عاد فى نفس الوقت وأعطانا « رخصة » أو اذنا فريدا من نوعه ، وهو أنه اذا كنا ميالين بشدة الى اعادة كتابة كل تاريخ الفرنجة فمن الممكن اعادته على شكل رواية شعرية فى صورة قصيدة Narrative Poem (١) •

ملاحظات جريجورى الطبيعية فى تاريخ الفرنجة:

كان جريجورى مراقبا ممتازا للطبيعة • ولقد وجد فى الكتب العشرة لتاريخ الفرنجة حيزا لاثنتين وثلاثين ملحوظة طبيعية ، بالرغم من أن أكثرها سجل وباء أو عاصفة •

كانت ملاحظاته الست الاولى تتعلق بسنوات صباه(٢) • والحقيقة أن جريجورى لم يكن فلكيا ،

1. L. Thorpe : Ibid., p. 49.

(٢) الملاحظات هى : الشتاء القارس الى اقصى الحدود فى ٥٤٨ م ، تحرك النجوم حول القمر فى ٥٥٥ م كعلامة على أن Theudebad سيموت قريبا ، وباء الجراد فى أفرجين واليموزين Auvergine

لكنه راقب السماء فى الليل باستمرار ، وربطها بأحداث معينة ، فمثلا عندما كان فى باريس ٥٧٨ م رأى نورا شع من السماء فتنبأ بموت ميروفتش ، أما فى سنة ٥٨٢ م فقد شوهد نجم ذو ذنب فى السماء صاحبه رعد وبرق وتوهجت نار فى السماء وقصف الطاعون bubonic plague الذى تسبب من المذنب بناربون . وفى ٥٨٥ تنبأت أضواء كالمنارة وأعمدة من نار بموت جندوفالد Gundovald .

كذلك لم يكن جريجورى جغرافيا لكنه دون الكثير عن الامطار والفيضانات والزلازل . ففى ٥٧٨ م كانت الفيضانات عالية ، وفى ٥٨٠ م كانت هناك أمطار غزيرة وفيضانات وزلازل ، كذلك شهدت سنة ٥٨٢ م أمطارا غزيرة . وارتفعت مياه الانهار فى ٥٨٣ م . أما فى ٥٨٤ م فقد كان هناك صقيع وبرد تبعه جفاف وقحط ممتد الاجل ، وفى سنة ٥٨٥م كانت شهور الربيع والصيف رطبة جدا حتى أنها كانت أكثر شبها بالشتاء منها بالصيف . أما فى ٥٨٧ م

=

The Limousin فى ٥٥٩ م ، خفقان ضوء الليل الذى انذر بموت لوثر الأول فى ٥٦١ م ، الانهيال العظيم للصخور والتربة الذى حدث فى ثيوريدونوم Thauredunum ٥٦٣ م ، وبانسداد مجارى الانهار فاضت شواطىء نهر الساؤون حتى جنيف ، وسبب المذنب أو النجم ذو الذنب الوباء فى أوفرجين . (L. Thorpe : Ibid., p. 50)

فقد أمطرت أولا على شكل سيول ثم كان هناك صقيع فى غير أوانه · وفى ٥٨٩ م كانت هناك أمطار مرعبة وعواصف بردية · كذلك فى سنة ٥٩٠ كان المطر غزيرا وارتفعت الانهار فى شكل فيضان · كل ذلك الطقس العاصف خرب المحاصيل ، وطافت الذئاب داخل أسوار بواتييه وبوردو بحثا عن فريسة ، وأكلت كل الكلاب التى قابلتها صدفة · كما سبب الجراد خرابا هائلا فى توليدو ·

كذلك تكلم جريجورى بالتفصيل عن مجاعة ٥٨٥م فى غاليا · حيث قاسى منها الغالبية العظمى من أهالى غاليا · وصنع الناس الخبز من بذر العنب وبندق الصفصاف ، بينما جفف آخرون بعض النباتات مثل السرخس والخنشار وطحنوها الى دقيق ثم أضافوا اليها القليل من الدقيق · والبعض الآخر قطعوا سيقان القمح وطحنوها مع اضافة قليل من الدقيق أيضا ، أما العديد الآخرين الذين لم يكن لديهم دقيق بالمرة ، فقد جمعوا الحشائش وأكلوها ، وكانت النتيجة أنهم انتفخوا وتورموا حتى ماتوا · وبمرور الوقت تفشت الدوسنتاريا والطاعون(١) ·

---

1. L. Thorpe : Ibid., pp. 50-52.

الفصل الثـانى

قيمة حولية جريجورى بالنسبة لتاريخ الفرنجة عامة

وعصر كلوفس خاصة



أصـــل الفرنجة :

عندما تناول جريجورى أصل الفرنجة وتأسيس دولتهم اعتمد على مصادر معاصرة موثوق بها مثل تاريخ سلبكيوس الكســـــندر وتاريخ أوروسيوس ، اللذين سبقت الاشارة اليهما ٠

والواقع ان أهمية اشارة جريجورى الى تأسيس دولة الفرنجة ونشأتها يرجع الى استناده الى «تاريخ سلبكيوس الكسندر "The Historia of Sulpicius Alexander المفقود (١) حاليا ، والمعاصر لتلك الفترة الهامة فهو يقول مثلا :

ان مكسيماس Maximus عندما قطع كل أمل فى العرش الامبراطورى ، فقد صوابه وذهب ليعيش فى أكويليا Aquilia ٠ عندئذ غزا الفرنجة (٢) الاقليم

---

1. Gregory of Tours : The History of the Franks, p. 120.

(٢) يتناقض غزو غاليا بواسطة الفرنجة مع غزوات القبائل الجرمانية الشرقية فى انه كان يشبه فيضان الجيران المستقرين منذ زمن طويل فى الاقليم عن أن يكون نهاية العديد من الهجرات ٠٠ وهكذا تكونت كتلة من الأقاليم على جانبى الراين التى كانت حتى فى أيام الامبراطورية كلهـا جرمانية ، والتى لم يهجرها الفرنجة عندما توسعوا وانتشروا ٠ وفى =

الرومانى المسمى جرمانيا تحـــت قيادة قـــوادهم (Genobaud, Marconer, Sunno) وذبح العديد من الاهالى وأتلفت المناطق الخصبة وخـــربت ، وروع سكان كولون Cologne .

=

٤٧٦ م انقسموا الى مجموعتين رئيسيتين · فكانت مملكة الفرنجة البريين Ripuarians حول كولونيا فى الراين الاوسط ، وكانت مملكة الفرنجة البحريين Salains فى برابانت الحديثة وفلاندرز ، والذين تقدموا حتى نهر السوم ، والمجموعة الاخيرة انقسمت الى أقسام حكمت بواسطة سلالة Merovech .

(Previte-Orton : The Shorter Cambridge Medieval History, VI, pp. 150-151).

ورغم أن اسم الفرنجة Free-men أو Franks كان مثار جدل وخلاف ، فقد جرى الاتفاق على انه لفظ شائع لتحالف غير مستقر للقبائل المقيمة على نهر الويزر والراين الادنى ، وهس Hesse ،وبرونزويك Brunswick ، وبين تلك القبائل التى ضمها ذلك التحالف صار الفرنجة البحريون أو الساليون أعظمها شهرة · ويصف الفرنجة الساليون أنفسهم بأنهم الشعب الجرىء السريع الذى لا تلين له قناة ، وكانوا يرون فى الشجاعة اسمى الفضائل كلها ، ويرددون دوما أنهم رجال أحرار ، ولم يعتبروا أنفسهم برابرة ، ومن المعروف ان الفرنجة الساليين كانوا طوال القامة ، شقر الوجوه ، يجمعون شعرهم الطويل ويعقدونه فوق رؤسهم ، ثم يتركونه يتدلى منها فى شكل اشبه ما يكون بذيل الحصان ، وكانوا يطلقون شواربهم ويحلقون لحاهم ·

(د· محمود الحويرى : رؤية فى سقوط الامبراطورية الرومانية ، ص ١٤٤ ـ ١٤٥ عن S. Dill, Thomas Hodgkin, (ول ديورانت

وعندما وصلت تلك الاخبار الى قـواد الجيوش الرومـــانية (كينتينوس Quintinus ، نانينوس Nanninus وتريير Trier) الذين كان ماكسيماس قد عهد اليهم برعاية ابنه القاصر وبالدفاع عن غاليا، جمعوا قواتهم وساروا الى كولون ... هنا تظاهر

الفرنجة بالانسحاب في ذعر وتراجعوا الى أقاليم الغابات النائية ، .... فاندفع الجنـــود الرومان خلفهم فى حقول المستنقعات التى تحيط بالغابات ، عندئذ بدأ الفرنجة يطلقون عليهم السـهام بعـد أن مسحوها بالسم المستقطر من النباتات ، فكانتجروح السهام التى لا تزيد عن كشط الجلد أو حتى لمســـه لابد وأن يتلوها الموت . غاص عدد كبير من الفرسان الرومان بخيلهم فى المستنقعات وكذلك عدد لا حصر له من المشاة أيضا ، وهكذا « طفا الجميع على سطح المستنقعات فى شكل كارثة عامة » (١) على حد تعبير جريجورى . وبهذا أحرز الفرنجة النصر على القوات الرومانية .

يعود جريجورى ليوضح لنا الرؤية عن أصـــل الفرنجة مستندا الى مصدر ثقة أيضا هو Orosius

1. Gregory of Tours: The History of the Franks, pp. 120-121.

فيقول : « لقد قيل بصفة عامة أن الفرنجة جاءوا فى الأصل من بانونيا ثم إحتلوا فى البداية شـواطىء الراين ، وعبروا النهر وســـاروا عبر ثورنجيا ، وأقاموا فى كل مقاطعاتها ، وأسرعتكل مدينة لتختار ملكها من العائلاتالرئيسية والاكثر نبلا منجنسهم» . قيل أيضا أن كلوديو Clodio وهو رجل من أصل عال ، كان يعرفـبالمقدرة بين أهله ، كان ملكا للفرنجة وأنه عاش فى اقليم ثورنجيا فى قلعته . ولما كان الرومان يحتلون الاراضى الواقعة الى الجنوب حتى نهر اللوار ، فقد أرسل جواسيسه الذين أمدوه بتلك الاخبار فهاجمهم بقواته وسحقهم حتى نهر السوم ، ويقال : ان شـــلدريك Childeric ابن ميروفتش Merovech ينحدر من كلوديو (١) .

وقبل أن نتطرق الى الحديث عن كلوفس Clovis (٢)

---

1. Gregory of Tours : The History of the Franks, pp. 124-125.
2. Bury : History of the Later Roman Empire, V. I, p. 346,
   Sidney Painter : A History of the Middle Ages, p. 64,
   Previte-Orton : The Shorter Cam. Med. Hist., V. I, p. 151.

هنا يذكر برنارد باشراش أن كلوفس ولد حوالى ٤٦٦ م ، وأنه يعتبر أول ملك معترف به على وجه العموم من الفرنجة .

Bernard. S. Bachrach : Lexicon Universal Encyclopedia, V. 5, p. 70.

أو Chlodwig أو Chlodoved الذى اعتلى عرش الفرنجة بعد وفاة والده ٤٨١ م والذى يعتبر أشهر ملوك الفرنجة الميروفنجيين ، نود أن نؤكد هنا الحكم العام الذى أصدره الاستاذ كريستيان بفستر Christian Pfister على الجنس الفرنجى عامة عندما قال : « ان الجنس الفرنجى كان منغمسا فى الفسق والفجور الى أقصى درجة » (١) ٠

والواقع أن هناك بعض الادلة التى سبق أن ذكرناها فى ثنايا الكلام مثلا عن علاقة فريديجوند بابنتها ريجونث التى كانت فاسقة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، لكن ربما اتضحت الصورة أكثر اذا ما تعرضنا بالدراسة لحياة شلدريك والد كلوفس نفسه مثلا ٠

يفصل لنا جريجورى تلك الصورة فى حوليته بقوله ا نحياة شلدريك ملك الفرنجة الخاصة كانت « حياة فسق طويلة » حتى أنه بدأ يغوى بنات رعاياه ، فثاروا ضده وأجبروه على التنازل عن العرش ٠ ثم اكتشف أنهم عزموا على قتله فهرب الى ثورنجيا Thuringia

---

1. Christian Pfister : The Cam. Med. Hist., V. II, p. 145.

كما يفصل لنا جريجورى الكلام أيضا عن فسق بعض أقارب كلوفس ؛ أنظر

Gregory of Tours : Op. Cit., pp. 156-157.

وترك خلفه صديقا حميما ، كان لديه المقدرة بكلماته المعسولة على تهدئة رعاياه ، وترك شلدريك لصديقه هذا نصف عملة ذهبية واحتفظ هو بالنصف الاخر ، وطلب منه أن يبعث اليه بذلك النصف اذا هـــدأت الأمور ، فيكمل به النصف الذى معه ، وتكون تلك اشارة منه بطلب رجوعه الى غاليا آمنا ٠

ويستمر جريجورى بعد ذلك فى تناول حيـــاة شلدريك فى ملاذه الجديد ، فيذكر أنه خرج متوجها الى ثورنجيا واحتمى بالملك بســـينوس Bisinus وزوجته باسينا Basina ٠ وبمجرد رحيله اختار الفرنجة أيجيديوس Aegidius ملكا عليهم ، وهو الذى كان قائدا للقوات الرومانية ، وظل ايجيديوس حاكما للفرنجة لمدة ثمانى سنوات ، استطاع صديق شلدريك فى هذه الفترة أن يهدىء رعاياه وأقنعهم بضرورة عودته ٠ وبالفعل أرسلت اليه العلامة المتفق عليها ، وعاد شلدريك من جـــديد الى العـــرش ٠ وسرعان ما لحقت به بسينا التى هجرت زوجها الملك بسينوس ، وأبدت لشلدريك اعجابها الشديد بقوته وبراعته فتزوجها وولدت له كلوفس الذى أصـــبح ملكا مشهورا(١) ٠

---

1. Gregory of Tours : The History of the Franks, pp. 128-129.

هذا من ناحية حياة شلدريك الخاصة ، أما عن عــلاقته بالامبراطورية الرومــانية فى ذلك الوقت ، فان (بيورى) يذكر لنا أن الحــكم الامبراطورى فى شمال غاليا لم يكن واضحا فى الثلاثين سنة الاخيرة . ولقد ظل شلدريك مخلصا ومرتبطا بالامبراطورية ، لذلكسارع لمساعدة القائد الامبراطورى بول Paul فى عملياته ضد العدو عنـــدما هاجم الســـكسون السواحل الشمالية الغربية لغاليا (١) .

واذا كان شلدريك قد حافظمنناحيته على السيادة الرومانية فى غاليا ، فان ايجيديوس شاركه نفس تلك المهمة أى أنه بمعنى آخر كان كل منهما ممثلا للسيادة الرومانية والنفوذ الرومانى .

وعندما توفى أيجيديوس ترك بعـــده ابنا يدعى

=

هنا يضيف جريجورى أن بسينا عندما لحقت بشلدريك سألها عن السبب الذى جعلها تأتى من ذلك المكان البعيد لتكون معه ، فردت عليه بأنها تعرف أنه رجل قوى وأنها تقدر البراعة والمقدرة عندما تراها ، وان هذا هو السبب الذى جعلها تأتى لتعيش معه ثم أضافت « لتكن متأكدا أنه اذا عرفت أن هناك شخصا اخر ، حتى لو كان بعيدا عبر البحر ، اكثر مقدرة وبراعة منك لبحثت عنه فى الخارج ، ولذهبت لاعيش معه بدلا منك » عندئذ سر شلدريك بكلامها للغاية وتزوجها .

1. Bury : History of the Later Roman Empire, V. I, p. 346.

سياجريوس Syagrius (١) ، وهو الذى آل اليه الدفاع عن غاليا البلجيكية فى السنوات الاخيرة لعهد شلدريك ·

وفى ٤٨١ م توفى شلدريك وخلفه ابنه كلوفس فرأى بوضوح أن قوة الامبراطورية فى غاليا كانت مهملة ، فالمقاطعات القليلة التى كانت لا تزال تدار باسم الأغسطس أو الامبراطور المعظم الموجود فى القسطنطينية كانت قد فصلت عن بقية الامبراطورية بواسطة مملكة القوط الغربيين Visigoths والبرجنديين · وهكذا رأى أن قدر غاليا هو أن تحكم بواسطة حكام جرمان ، لذلك صمم كلوفس أن يأخذ الفرنجة نصيبهم فيها (٢) ·

---

1. Gregory of Tours: The History of the Franks, p. 132.
2. Bury : History of the Later Roman Empire, V. 1, p. 346.

كان القوط الغربيون يحكمون الاراضى الواقعة الى الجنوب من اللوار، ووصل نفوذهم الى ما وراء البرانس عبر أسبانيا الى مضيق جبل طارق ، كذلك كانت الاراضى الواقعة جنوب نهر الديورانس Durance والسماه بروفانس تكون أيضا جزءا من مملكتهم · أما البرجنديون فكانوا يسكنون وادى الساؤون والرون حتى الديورانس ·

Christian Pfister : The Cambridge Medieval History, V. II, p. 109.

كلوفس ملك الفرنجة وعصره :

لقد عرفنا لمحة موجزة فى ثنايا الصفحات السابقة عن أسرة كلوفس وأجداده الاوائل ، ثم تعرفنا عن قرب على والديه أما عن مواهبه وشخصيته فنستطيع أن نستشف بعضها مما كتبه بريفت أورتون من أنه « كان بربريا ذا ثراء ، ونهما لا يشبع بالنفوذ والفتح ، ٠٠كشف عن نفاذ بصيرة واضحة بين القوى التى كانت مؤثرة فى عصره ، داهية حذرا » ، الى جانب أنه كان جغرافيا مولعا باستعادة ذكريات قنسطنطين »(١) العظيم وهو يعتبر أن تلك المؤهلات والمواهب ، كانت هى سر نجاحه فى تولى الملك وهو شاب لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره ٠

يضاف الى ذلك عدة صفات أخرى نراها بوضوح من ثنايا احدى روايات جريجورى التورى عن كلوفس قبل اعتناقه المسيحية ، وهى أنه كان وفيا لوعوده ، ملتزما بتنفيذها ، كاظما غيظه فى الوقت المناسب أحيانا ، منتقما قاسيا لدرجة مرعبة أحيانا أخرى(٢) ٠

---

1. Previte-Orton : The shorter Cambridge. Med. Hist. V. I, p. 151.

(٢) روى لنا جريجورى كيف نهبت العديد من الكنائس بواسطة قوات كلوفس الذى كان عند اعتلائه للعرش مازال وثنيا ٠ فنهب جنوده ابريق =

والواقع ان كلوفس كان مؤهلا للعــرش والنفوذ بما حباه الله من امكانات طبيعية ، لذلك فبمجرد وفاة والده شلدريك أخذ يخطط للتخلص من القوى المختلفة المحيطة به كى يثبت دعائم عرش الفرنجة ٠

لكن يجب ألا يفوتنا هنـــا رأيا هاما ذكره بعض

=

كبير الحجم رائع الصناعة الى جانب العديد من الاشياء الثمينة الخاصة بالكنيسة ٠ لذا أرسل أسقف الكنيسة فى طلبها مع رسل أرسلهم ليلتمسوا من كلوفس انه اذا لم ترد الانية المقدسة الاخرى فانه يرجوه أن يعيد على الاقل ذلك الابريق ٠ فاستمع اليهم الملك كلوفس وطلب منهم أن يتبعوه الى سواسون حيث يتم توزيع الغنائم وهناك وجه كلوفس كلامه الى رجاله وهو يشير للابريق قائلا : « سأترك الامر لكم يا قراصنتى الاقوياء ، أن تمنحونى ذلك الابريق فوق نصيبى العادى » ٠ فرد عليه الجميع بأن كل شىء ملك لك أيها الملك النبيل حتى أرواحنا الا أن أحدهم تقدم بسرعة وهو فى شـــدة الغضب ورفع فأس الحرب الخاصة به وضرب بها الابريق وصاح قائلا : « لن تأخذ شيئا من هذه الغنيمة سوى نصيبك القانونى » فذهل الحاضرون، لكن الملك ، أخفى كدره تحت مظهر الصبر الطويل ٠ وأخذ الابريق وأعطاه لمبعوثى الكنيسة لكنه فى نهاية العام أمر كل الجيش بالاجتماع فى مكان الاستعراض كى يختبر حالة تجهيزاتهم ، ولما وصل الملك فى تفتيشه الى ذلك الرجل الذى كان قد ضرب الابريق بفأسه ٠ وبخه على ســوء حالة معداته واهماله لها ٠ وأمسك بفأسه ورماها على الارض ٠ وعندما انحنى الجندى ليلتقطها رفع كلوفس فأسه وشق جمجمة الجندى بها وهو يصيح « هذا ما فعلته بابريقى فى سواسون » ٠ فمات الجندى وانصرف الجميع مملوءين بالرعب ٠

(Gregory of Tours. Op. Cit., pp. 139-140).

المؤرخين هو أن كلوفس الملك الفرنجى الشاب الذى لم يكن قد تجاوز الخامسة عشرة من عمـــره ، ظل حوالى خمس سنوات بعد اعتلائه العرش مقيدا وظلت قوته مكبوحة بواسطة ايورك Euric ملك القوط الغربيين القوى ، لكنه لم يلبث بعد وفاة ايورك أن حشد الجيوش ودعا لمساعدته ملوك الفرنجة البحرين الاخريين وتوجه لمحاربة سياجريوس (١) ٠

كلوفس وسياجريوس :

كانت أولى احتكاكات كلوفس مع سياجريوس ابن أيجيديوس قائد القوات الرومـانية(٢) الذى اتخـذ

---

1. Christian Pfister : The Cam. Med. Hist., V. II, p. 110, Previte-Orton : The Shorter Cambridge Med. Hist. V. I, p. 151.

ويضيف المرجع الاخير (pp. 141-142) أن القوط الغربيين تمكنوا بقيادة الملك ايورك ٤٦٦ ـ ٤٨٤ م من تقوية نفوذهم فى غاليا وتأسيس مملكتهم فى أسبانيا فكانت حدود مملكتهم فى غاليا تعرف باللوار والرون والبحر المتوسط ٠ وعند وفاة ايورك كان يحكم أحسن المناطق الممتدة فى أسبانيا من البرانس حتى مضيق جبل طارق بينما استولى البـاسك على الشمال والسويفى على الشمال الغربى واحتفظ بعض النبلاء الاسبان الرومان بنوع من السيادة على الوسط ٠

(٢) أخطأ جريجورى عندما أعطاه لقب ملك ٠
(Gregory of Tours : The History of the Franks, p. 139)

من سواسون Soissons (١) ـ مثل أبيه ـ عاصمة ومقر له .

خطط كلوفس للتخلص من ممثل السيادة الرومانية كى يصبح الممثل الوحيد لها ، وبذلك يرسى أول أسس عرشه ، لذلك سار فى ٤٨٦ م ضـــد سياجريوس ، وهزمه عند سواسون وأباد جيشه وفر سيجاريوس الى الملك الريك الثانى Alaric II ملك القــوط فى تولوز ، فطلب كلوفس من الريك أن يسلمه أو يهاجمه هنا « خاف الريك أن يتعرض لغضب الفرنجة من أجل سياجريوس ، لذلك سلمه ـ مقيدا ـ الى رسلهم » . وعندما أصبح سياجريوس فى قبضة كلوفس أمـــر بحبسه ، حتى اكتملت له السيطرة على كل مملكته فأمر بقتله سرا (٢) .

وهكذا تخلص كلوفس من سياجريوس الذى ظــل

---

(١) يمكن القول أن سواسون كانت تعتبر بمثابة جزيرة « رومانية » وسط محيط واسع من الممتلكات الجرمانية فى اقليم الغال .

(د. محمود الحويرى : رؤية فى سقوط الامبراطورية ، ص ١٥٠).

2. Gregory of Tours : Ibid., p. 159.

يعلق جريجورى على مسلك الريك وتسليمه سياجريوس لكلوفس بقوله: « لان القوط جنس جبان » .

والواقع أن الضعف الداخلى أخذ يدب فى مملكة ايورك الهائلة عندما خلفه ابنه الضعيف الريك الثانى ٤٨٤ ـ ٥٠٧ م فلم يحاول الملك الجديد أن يواجه أى هجوم من كلوفس الفرنجى .

(Previte-Orton : Op. Cit., V. I, p. 143).

يمثل بقايا الادارة الرومانية فى حوض السين على الرغم من سقوط الامبراطورية فى الغرب قبل ذلك بعشر سنوات فى ٤٧٦ م فى عهد الامبراطور رومولوس أوغسطولس Romulus Augustulus على يد الزعيم الجرمانى أودواكر (١) ٠

واذا كان بعض المؤرخين يميلون الى وصف نضال كلوفس ضد سياجريوس بأنه « صدام بين زعيمين طموحين أكثر منه بين قوميتين معاديتين»(٢) فاننا نميل أيضا للاخذ بهذا الرأى مستندين الى ما ذكره سدنى بينتر Sidney Painter من أنه بعد انتصار كلوفس على سياجريوس واحتلاله لباريس كان فى ذلك الوقت قائدا فى الخدمة الرومانية ، وكان أتباعه من القوات الرومانية المتحالفة ٠ وعلى ذلك اعتبر نفسه ممثلا للامبراطور ٠ وقد اتخذ لقب وزى القنصل الرومانى ، بينما حمله جنوده داخل باريس على أكتافهم ٠ ويقال : ان كلوفس وخلفاءه ، وضعوا رأس الامبراطور الرومانى لعدة أجيال على كل عملاتهم ٠٠٠ وهكذا اعتبر كلوفس من أحد وجهات

---

(١) د٠ عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٩٤ ، ٩٦ ٠

(٢) د٠ عاشور : المرجع السابق ، ص ٩٦ عن
(Lot : The End of the Ancient World.)

النظر ، خليفة جرمانيا للحكام الرومان لغاليا (١)٠
والواقع أنه بعد انتصار كلوفس على سياجريوس عند سواسون وخلال سنتين أو ثلاثة خضعت له كل المدن شمال اللوار حتى حـــدود بريتانى Brittany وبرجنديا Burgundy ٠ ومن ثم تحول من ملك قبلى صغير الشأن الى ملك لدولة واسعة ٠ عندئذ ظهرت حكمته وابتسم له الحظ اذ أعطته الارض الحالية من السكان مجالا واسعا استغله فى اغـــداق الهبات والمنح على العديد من المستوطنين الفرنجة كمكافآت عن النصر ٠ بل ان كلوفس استطاع أن يستخدم قوات سياجريوس نفســـــه ، الذين كانوا من المـــرتزقة الجرمان (٢) ٠

كلوفس والثورنجيون :

كان الثورنجيون Thuringians البرابرة قد أسسوا دولة صغيرة على الضـــفة اليسرى للراين بالقرب من الفرنجة البحريين المقيمين حـول كل من كولون Cologne وتريف Trevès . (٣) ٠

---

1. S. Painter : A History of the Middle Ages, pp. 63-64.

وهو يشير هنا الى أن أهم مراسيم اختيار ملك جديد كانت رفعه على اكتاف محاربيه رمزا لاختياره ٠

2. Previte-Orton : Op. cit., V. I, p. 151.
3. Christian Pfister : The Cam. Med. Hist., V. II, p. 110.

وفى السنة العاشرة من حكم كلوفس ٤٩١ م غزا الثورنجيين وأخضعهم لحكمه (١) • ويقال انه أدرج محاربيهم ضمن قواته الخاصة • بل انه دعا أيضا قوات أجنبية وبربرية أخرى للسير تحت أعلامه(٢) •

زواج كلوفس من كلوتيلد البرجندية :

كانت كلوتيلد هى الابنة الصغرى للملك شلبريك Chilperic ابن جنديوك Gundioc ملك البرجنديين ، والتى كان عمها جندوباد Gundobad قد قتل والديها (٣) • كانت كلوتيلد استناد الى ما كتبه جريجورى التورى « امرأة صغيرة أنيقة ، ذكية وموهوبة بالنسبة لسنها ، بالاضافة الى دمائها الملكية » لذلك طلب كلوفس من عمها جندوباد أن

---

1. Gregory of Tours : The History of the Franks, p. 140.
2. Christian Pfister : Op. Cit., V. II, p. 111.

(٣) كان للملك البرجندى جنديوك أربعة أبناء هم : Gundobad ، Godigisel ، Chilperic ، Gundomar • قتل جندوباد أخاه شلبريك وأغرق زوجته بعد أن ربط حجرا حول رقبته وساق ابنتا شلبريك الى المنفى ، كانت الكبرى واسمها Chroma قد ترهبنت ، أما الصغرى فكانت تسمى كلوتيلد •
(Gregory of Tours : Op. Cit., pp. 140-141)

يزوجها له فوافق فى الحال خوفا من كلوفس (١) ·
وتزوجها كلوفس فى ٤٩٣ م (٢) ·

كلوفس والمسيحية :

يعتبر اعتناق كلوفس للمسيحية من أطرف وأهم الموضوعات التى يمكن دراستها فى فترة حكمه · والواقع أن جريجورى التورى أمدنا فى حوليته بأدق تفاصيل ذلك الموضوع الذى يهم مؤرخى العصور الوسطى الاوربية عامة ورجال الدين الكاثوليك خاصة · وللتعرف عن قرب على جوانب هذا الموضوع نذكر ما أكدته المصادر المعاصرة لكلوفس من أنه كان من حسن حظه أنه عندما ارتقى عرش الفرنجة وبدأ توسعاته « كان وثنيا فلم يكن يقيده ايمان راسخ بالاريوسية مثل بقية قبائل الشرق الجرمانى ، وفى نفس الوقت أقام علاقات ودية مبكرة مع الأساقفة الكاثوليك فى شمال غاليا (٣) · لهذا

---

1. Gregory of Tours : Ibid,, p. 141.

هنا يذكر جريجورى أن كلوفس كان لديه ولد يسمى Theuderic من احدى خليلاته فى ذلك الوقت لكنه كان سعيدا عندما رأى كلوتيلد فتزوجها ·

2. Previte-Orton: Op. cit., V. I, p. 151, Christian Pfister: The Cam. Med. Hist., V. II, p. 111.
3. Previte-Orton : Op. cit., V. I, p. 151.

استبشر رجال الـــدين الكاثوليك خيرا مـــن وراء تقاربهم معه ٠

لكننا نلمح فى نفس الوقت اصرار كلوفس على التمسك بوثنيته رغم الحاح زوجته كلوتيلد المستمر له على الدخول فى المسيحية وتسفيهها المســـتديم لآلهته الوثنيين ، وهو ما رواه لنا جريجورى التورى بالتفصيل فى حوليته وكان من أطرف فصولها(١) ٠

---

(١) يروى لنا جريجورى بالتفصيل محاولات كلوتيلد المســـتديمة لاقناع زوجها بتعميد طفلهما الاول وتسفيه آلهته الوثنيين ، فكانت تقول له مثلا : « ان الالهة التى تعبدها ليست نافعة ٠٠٠ انها نحتت من الصخر أو الخشب أو بعض القطع المعدنية القديمة ٠٠٠ لنأخذ جوبيتر Jupiter كمثال ، لقد ارتكب الفواحش من كل نوع ، فلم يكن يمنع يديه من أن تمتد الى الرجال الاخرين ، بل امتد لهوه الى كل أقاربه من الاناث ، ولم يكن يستطيع الاحجام عن الاتصال بأخته نفسها حتى قيل ان أخت جوبتر كانت زوجته فى نفس الوقت » ٠٠٠ ثم تحاول ان ترشده الى ان الاله الواحد الإجد هو خالق كل شىء بقولها مثلا : « من الواجب عليك أن تعبد من خلق من كلمة ٠٠٠ خلق الارض والبحر وكل ما فى الوجود ، الذى جعل الشمس ساطعة ، وأضاء السماء بالنجوم ، وأسكن الاسماك فى الماء ٠٠٠ والذى باشارة منه أصبحت الحقول جميلة بالفواكه ٠٠٠٠ والذى بيديه خلقت القوة المميزة لجنس الرجال » ٠ لكن الملك كان يرد عليها دائما بقوله « ان كل هذه الاشياء خلقت بأمر الهتنا ٠ ومن الواضح أن الهكم لا يفعل شيئا ، وأكثر من ذلك فانه لا يوجد دليل بالمرة على أنه اله » ٠

لعبت كلوتيلد دورا مرموقا فى اجتذاب كلوفس الى المسيحية على مذهبها الكاثوليكى ، وكان لذلك آثاره البعيدة المدى على تاريخ الفرنجة والكنيسة الغربية بوجه عام ·

والحقيقة أن كلوتيلد الشديدة الاخلاص لعقيدتها حققت نصف انتصارها باقناع زوجها بتعميد أطفالهما (١) · فعندما حملت ولدها الأول كى يعمد كان ذلك على أمل أن الملك كلوفس الذى استمر عنيدا فى وجه أى حجة أو برهان ، يدخل فى المسيحية بعد مشاهدة شعائرها ومراسيمها وبالفعل عمد الطفل وأعطى اسم Ingomer لكن بمجرد أن تم تعميده حتى توفى فى أثوابه البيضاء · هنا غضب كلوفس بشدة ووبخ مليكته قائلا : « اذا كان قد كرس لخدمة اسم آلهتى لعاش من غير شك ، لكن الآن وقد عمد باسم الهك فانه لم يستطع أن يعيش يوما واحدا · لكنها ردت عليه بأنها تقدم الشكر لله لأن طفلها خرج من هذا العالم فى أثواب تعميده البيضاء » · ثم عمدت كلوتيلد طفلها الثانى باسم Chlodomer وعندما بدأ يتوعك قال لها كلوفس : « انه سيفارق

---

1. Christian Pfister : Op. Cit., V. II, p. 111.

الحياة بمجرد تعميده مثلما حدث لأخيه » . هنـــا صلت لله حتى شفى الطفل(١) .

نستنتج من ذلك أن كلوفس كان شديد التمســك بوثنيته فى بداية حياته الزوجية مع كلوتيلد .
لم يلبث أن تحقق انتصار كلوتيلد الكامل لعقيدتها عندما اعتنق هو نفسه المسيحية وذلك بعد انتصاره على الألمانى فى ٤٩٦ م .

حرب كلوفس مع الألمانى واعتناقه المسيحية ٤٩٦م

لم تيأس الملكة كلوتيلد مطلقا ولم تتوان فى حث زوجها على اعتناق المسيحية . وفى ٤٩٦ شن كلوفس الحرب ضد الألمانى Alamanni الذين كانوا يمتلكون Alace وكانوا يحاولون باستمرار مد أراضيهم الى الغرب عبر الفوج Vosges . لذلك كان الصدام بين القــوتين أمرا محتوما(٢) . وفى تلك الحــرب وافق كلوفس « بارادته الحرة على ما كان يرفضه » على حد تعبير جريجورى التورى ، الذى يشير هنا بالطبع الى موقف كلوفس من المســيحية ، فعندما تقابل الجيشان فى ساحة القتال كانت هناك مذبحة

---

1. Gregory of Tours : Op. Cit., p. 142.
2. Christian Pfister : Op. Cit., V. II, p. 111.

مروعة ، وكادت قوات كلوفس أن تباد بسرعة · عندئذ رفع عينيه الى السماء ، متوسلا باسم المسيح أنه اذا وهبه النصر على أعدائه فسوف يؤمن به · ولم يفرغ كلوفس من قوله حتى استدار الألمـــانى وأعطـــوا ظهورهم لجيشه وفروا هاربين · هنا أوقف كلوفس الحرب وخطب خطبه نادى فيها بالسلام ثم عاد الى بلاده وذكر للملكة كيف أحرز النصر بالمناداة باسم المسيح (١) ·

---

(١) يفصل لنا جريجورى ذلك الموقف بقوله : ان كلوفس عندما رأى قواته على وشك الابادة شعر بالندم وتفجرت دموعه ورفع عينيه للسماء وقال : « أيها المسيح ، الذى أكدت كلوتيلد انك ابن الاله الحى ، أنت الذى تتفضل بتقديم المساعدة لمن يتعذبون والنصر لمن يؤمنون بك أتوسل اليك أن تمنحنى مساعدتك اذا وهبتنى النصر على أعدائى وأعطيتنى دليلا أو علامة على تلك القوة الخارقة التى يجدها الناس فى اسمك فسوف أؤمن بك وسوف أعمد باسمك · لقد ناديت على آلهتى ، ولكن كما رأيت بوضوح انها غير منتبهة لمساعدتى ، وعلى ذلك فانا لا أستطيع أن أؤمن انها تمتلك أية قوة ، لأنها لم تساعد الذين يؤمنون بها · أنا الآن أنادى عليك · أنا أرغب فى الايمان بك ، للكنى يجب أن أحتمى من أعدائى » · وبمجرد أن قال ذلك فر الألمان هاربين ·

(Gregory of Tours : Ibid., p. 143).

ويقال ان هزيمة الألمانى كانت فى موقعة Tolbiac ·

(Bernard. S. Bachrach : Lexicon Universal Encyclopedia, V. 5, p. 70).

تعميد كلوفس ٤٩٦ م :

ما أن عاد كلوفس من حربه الظافرة ضد الألمانى حتى روى لزوجته ما أسبغه الله عليه من نصر ، اثر ابداء رغبته فى الايمان به ففرحت بشدة وأرسلت سرا فى طلب القديس ريميجيوس Saint Remigius أسقف ريمس Rheims ، « وتوسلت اليه أن يمنح الملك كلمة الخلاص من الخطيئة »(١) • عندئذ طلب الأسقف بدوره من كلوفس أن يقابله سرا ، وأثناء تلك المقابلة حثه على الايمان بالله الحقيقى خالق السماء والأرض ، وأن يتخلى عن عبادة الأوثان التى لا قوة لها على مساعدته أو مساعدة غيره ، فرد عليه الملك : بأنه « استمع الى كلامه عن طيب خاطر » لكنه بقيت أمامه مشكلة واحدة وهى أن رعاياه ربما لا يتخلون عن آلهتهم ، ثم طلب الملك من الأسقف مهلة كى يقنعهم • وبالفعل اجتمع الملك بشعبه ويقال انه قبل أن يتفوه بكلمة واحدة صاح كل الحاضرين فى

---

1. Gregory of Tours : Ibid., p. 143.

هنا يذكر جريجورى ص ١٤٤ أن القديس ريميجيوس كان أسقفا على قدر كبير من الثقافة وكان عظيما أيضا ، الى جانب انه كان مشهورا بقداسته ، وكان مماثلا للقديس سلفستر Saint Silvester فى المعجزات التى صنعها •

انسجام : « أيها الملك التقى سنتخلى عن عبادةآلهتنا الفانية ، ونستعد لنتبع الله الخالد الــــذى بشر به ريميجيوس » (١) ٠

وصلت تلك الاخبار الى الأسقف فسر سرورا عظيما وبالفعل أمر باعداد الترتيبات اللازمة لهذه المناسبة، التى أمدنا جريجورى التورى بوصف تفصيلى شيق لما تم فيها حيث قال : « زينت الميادين العامة بالاعلام الملونة والكنائس بالستائر ، وأعــد بيت المعمودية ، وكانت سحب الدخان العطرة تتصاعد من عيــدان البخــور ، وأعطت الشموع ذات الرائحــة الجميلة وميضا براقا ، وامتلا مكان العماد المقدس بالعبير الإلهى ٠ عندئذ أسرع كلوفس وتقدم الى حـــــوض التعميد كقنسطنطين آخر ٠٠٠ » ثم اعترف بايمانه بالله صاحب السلطة غير المحـــدودة ، وبالثالوث المقدس ، وعمد باسم الأب والابن والروح القدس(٢).

وقد تم فى ذلك اليوم أيضا تعميد أكثر من ثلاثة

---

1. Gregory of Tours : Ibid., pp. 143-144.
2. Gregory of Tours : Ibid., p. 144.

هنا يضيف جريجورى أن الأسقف قال لكلوفس بعض العبـــارات أهمها : « ٠٠٠ أعبد ما كنت قد أحرقت ، وأحرق ما كنت ترغب فى أن تعبـــد » ٠

آلاف من جيش كلوفس(١) • عنـدئذ كتب أفيتوس Avitus أسقف فينا البرجندية اليه قائلا : « ايمانك هو انتصـارنا "Your faith is our Victory" » (٢) ثم حثه بلغة معبرة رائعـة أن ينشر الكاثوليكيـة بين البرابرة فى أكبر مساحة من الأرض « التى لم تكن قد فسدت بعد بالمذاهب الهرطقية(٣) •

ومهما قيل من أن أسباب اعتناق كلوفس للمذهب الكاثوليكى كان بايحاء من زوجته ، أو أنه استمع لنصيحة رئيس أساقفة ريمس الذى أشـار عليـه بالتحالف مع الكنيسة الغربية حتى تضمن ولاء شعوب

---

1. Gregory of Tours : Ibid., p. 144.

عمدت أخت كلوفس أيضا المسماة Albofled فى ذلك اليوم• لكنها لم تلبث أن توفيت وحزن الملك لموتها بشدة ، لكن ريميجيوس أرسل اليه خطابا يعزيه فيه كان مما جاء فيه : « اننى مكروب وحزين بشدة ، واننى اشاطرك الحزن لفقد اختك ذات الذكرى العطرة ، الجديرة بالثناء • ونحن نستطيع أن نجد العزاء فى أن الموت أتاها وهى على هذه الحال التى تجعلنا نرفع ابصارنا اليها بدلا من الحداد عليها • كذلك اهتدت اخت ثانية لكلوفس هى Lanthechild واعتنقت الاريوسية ، لكنها عادت فاعترفت بالثالوث المقدس (pp. 144-145)

2. Previte-Orton : Op. it., V. I, p. 151, Christian Pfister : Op. Cit., V. II, p. 112.
3. Christian Pfister : Ibid., V. II, p. 112.

الغال ، أو أنه تعهد باعتناق المسيحية فى حالة انتصاره على الأليمانى سنة ٤٩٦ م ، فالحقيقة التى لا مراء فيها أن ذلك كله يعنى أنه صار بطلا من أبطال الكنيسة الكاثوليكية (١) ٠

صمم كلوفس بعد اعتناق المسيحية على مذهبها الكاثوليكى أن يقضى على الأريوسيين عامة وفى غاليا خاصة ٠ وقد صرح بذلك علنا لوزرائه عندما قال : « اننى أجد أنه من الصعب أن أستمر فى رؤية هؤلاء الأريوسيين يحتلون جزءا من غاليا ، لذا دعونا نغزوهم بمساعدة الله » (٢) ، وبالفعل بدأ فى تنفيذ تلك الخطة ٠

كلوفس والبرجنديون :

بعد حوالى أربع سنوات من تعميده ، وبالتحديد فى سنة ٥٠٠ م بدأ كلوفس يوجه حملاته ضد البرجنديين (٣) ٠ وقد كان الاخوان جندوباد

---

(١) د٠ محمود الحويرى : رؤية فى سقوط الامبراطورية الرومانية ، ص ١٥١ ٠

2. Gregory of Tours : Op. Cit., p. 151.
3. Christian Pfister : Op. Cit., V. 11, p. 112.

وجوديجيزل يحكمان الأراضى الواقعــة حول الرون والساؤون واقليم مرسيليا ، وكـــــانا يعتنقان هما ورعاياهما المذهب الأريوسى ، وفى نفس الوقت كانا عدوين (١) ، ولقد سهلت تلك العداوة مهمة كلوفس فى امتلاك أراضيهما ٠

فعندما سمع جوديجيزل بانتصارات كلوفس أرسل اليه مبعوثيه سرا وعرض عليه مساعدته ضد أخيه « حتى يتمكن من قتله فى معركة أو طرده من أرضه»، فى مقابل ضريبة سنوية يدفعها اليه فوافق كلوفس ثم اختار الاثنان الوقت المناسب وســـــارا ضـــــد جندوباد (٢) ٠ وعندما سمع الأخير بأخبار تحــرك كلوفس ضده ـ وكان على غير علم بالاتفاق الذى تم بين أخيه وكلوفس ـ أرسل الى أخيه يطلب منـــــه الاسراع لنجدته ضد الفرنجة حتى لا يقاسوا من نفس المصير الذى تعرض له غيرهم من قبل ٠ عندئذ أرسل اليه جوديجيزيل يطمئنه بأنه سيحضر لمساعدته ٠ وما أن دارت رحى المعركة على نهر Ouche حتى انضم جوديجيزل الى كلوفس وسحقت قواتهما المتحـــدة جيش جندوباد ٠ هنا فر جندوباد ، خصوصا بعد أن

---

1. Gregory of Tours : Op. Cit., p. 145.

(٢) جندوباد هذا هو الذى قتل والدى كلوتيلد زوجة كلوفس كما سبق الذكر ٠

اكتشف خيانة أخيه ، واتخذ طريقه على طول سواحل الرون حتى التجأ الى مـــــدينة أفينون Avignon أما جوديجيزيل فقد عاد الى بلاده ودخل فينا دخول المنتصر ، فى حين حشد كلوفس قوات أكثر وخرج فى اثر جندوباد الذى كان فى حالة ذعر شديد ، خشية أن يقتل ، الا أن ذكاءه هداه الى استخدام الحيـــلة للافلات من قبضة كلوفس وجيشه مستعينا فى ذلك بأحد أصدقائه ذوى المنزلة العالية الذى كان مشهورا بدهائه ،وبالفعل نجح صديقه هذا فى اقناع كلوفس بأخذ ضريبة سنوية من جنــــدوباد من ذلك الوقت فصاعدا (١) ٠

---

(١) يروى لنا جريجورى بالتفصيل الدور الذى قام بـــه أريديوس Aridius صديق جندوباد عند كلوفس ، فقد استدعى جندوباد أريديوس وأخبره أنه محاط بالمخاطر وأنه اذا تمكن جيش كلوفس من التخلص منه هو وأخيه فسوف يتلفون كل المنطقة المجاورة ، وطلب منه أن يفعل كل مافى وسعه ليسترضى « ذلك المخلوق الهمجى المتوحش » — وهو يعنى به كلوفس هنا وعده أريديوس بأنه سيفعل كل مافى وسعه وذلك بعد أن يتظاهر بالهرب منه واللحاق بكلوفس ؛

ولما وصل أريديوس الى كلوفس أخبره أنه ترك جندوباد البائس وجاء لينضم الى قواته وأنه اذا وافق على ذلك فسوف « يجد فيه هو وسلالته تابعا وخادما مخلصا جديرا بالثقة » ٠ كان أريديوس راوية بارعا ، لديه الكثير من النصائح القيمة ٠ فلما وجد من كلوفس الاصرار على حصار مدينة أفينون التى يقوم فيها جندوباد ، قال له « ماهو الغرض من الاحتفاظ

استعاد جندوباد قوته فى وقت متأخر وازدرى أن يدفع للملك كلوفس الضريبة التى كان قد وعد بدفعها ٠ كما سير جيشه ضد أخيه جوديجيزيل وحاصره فى مدينة فيينا ، مما جعل جوديجيزيل يشعر بالخوف من نقصان الامدادات فطرد الأهـالى من المدينة وطـرد معهم المهندس المسؤول عن العناية بالقناة التى تمد المدينة بالماء مما جعله يثور ويذهب الى جندوباد ، حيث أرشده على أسهل الطرق لاختراق المـــدينة وبمجرد أن دخلها جندوباد حتى أمر بألا تساء معاملة أحد من الفرنجة الذين كانوا مع أخيه ، وبعد أن نزع سلاحهم أرسلهم كمنفيين الى الملك الريك فى تولوز ٠ أما الغال الرومان والبرجنديين المؤيدين لجوديجيزيل

=

بكل هذه القوات مسلحة بينما عدوك آمنا فى قلعة غاية فى التحصين لا يمكن الاستيلاء عليها ؟ انك تخرب الحقول وتنهب وتسلب المروج الخضراء ٠٠٠ تتلف كل الريف الخصيب ٠ انك بهذا لا تلحق أى ضرر بجندوباد ٠ لماذا لا ترسل اليه فى طلب ضريبة سنوية يدفعها ؟ بهذه الطريقة سيصان الاقليم ويخضع هو لك ويدفع ضريبة الى الابد ٠ أما اذا لم يوافق على ذلك فافعل به ما تشاء » ٠ وبالفعل أخذ كلوفس بنصيحة أريديوس وأعاد الجيش الى بلاده وأرسل الى جندوباد فى طلب ضريبة سنوية ، فدفعها جندوباد عن تلك السنة ووعد بدفعها من ذلك الوقت فصاعدا ٠

(Gregory of Tours : Ibid., pp. 146-147).

فقد قتلهم جندوباد عن آخرهم(١) ٠

والواقع أنه اذا كـــان جندوباد قد قتـــل أخاه جوديجيزيل فى احدى الكنائس وأصبح ملكا بمفرده ، الى جانب تملصه من دفع أية ضريبة لكلوفس ، فانه وجد أنه من الأصوب له أن يكون حليفا لكلوفس ضـــد القوط الغربيين (٢) ٠

كلوفس والقوط الغربيين :

كان الريك الثانى (٤٨٤ ــ ٥٠٧ م) ملك القوط الغربيين(٣) ، قد لاحظ « أن كلوفس يسحق ســلالة

---

1. Gregory of Tours : Ibid., pp. 147-148.

هنا يذكر جريجورى أن جندوباد اكتشف أن المذهب الاريوس مذهب هرطقى ، وطلب من القديس افيتوس أسقف فيينا أن يعمده سرا ، لكن الاسقف طلب منه أن يفعل ذلك أمام الناس جميعا واعتبر ذلك نوعا من الخوف من رعاياه ٠٠ وأخبره أنه من الأحسن أن يتعلموا الحقيقة والصدق تحت توجيهه من أن يستمروا على الخطأ بعد موته ٠ لكنه أصر على الاعتراف بالديانة الصحيحة أمام رعاياه وبقى على اريوسيته ٠

(Gregory of Tours : Ibid., pp. 148-149).

2. Previte-Orton : Op. Cit., V. 1, p. 141.

هنا يضيف بريفت أورتون أن مملكة البرجنديين القبلية قد انتهت فى ٥٣٤ م بهزيمة الملك جوديمار Godemar أمام الفرنجة ٠

3. Previte-Orton : Ibid., V. I, p. 143.

من البشر بعد الاخــرى » لذا بعث اليـــه يطلب مقابلته(١) ، فوافق كلوفس وســافر لمقــابلة الريك حيث اجتمع الاثنان بالقــرب من أمبواز Amboise على جزيرة فى نهر اللوار فى أراضى تخص تــور ، وبعد أن تناولا الطعام معا « تعاهدا على أن تكون بينهما صداقة أبدية » ثم عادا الى بلادهما(٢) ٠

لم يلبث كلوفس والريك أن تقابلا فى ساحة القتال فى فوجلييه بالقرب من بواتييه ٥٠٧ م ، وانضم الملك البرجنـــدى جندوباد الى جـــانب كلوفس فى تلك المعركة(٣) ٠ كما ساعده أيضا شلودريك Chloderic ابن سيجيبرت الكسيح ، عندئذ انتصر الملك الفرنجى على ملك القوط ، وذلك « لأن الله كان بجانبه » على حد تعبير جريجورى التورى(٤) ٠ لذلك نقـــرأ عن هدايا كلوفس العديدة الى كنيسة القـديس مــارتن عند عودته الى تور(٥) ٠

---

(١) كانت رسالة الريك الثانى الى كلوفس على النحو التالى : « انه يبدو لى أنه سيكون شيئا جميلا أيها الاخ العزيز لو التقينا بمشيئة الله »٠
Gregory of Tours : Op. Cit., p. 150.

2. Gregory of Tours : Ibid., p. 150.
3. Previte-Orton : Op. Cit., V. 1, p. 143.
4. Gregory of Tours : Op. Cit., p. 153.
5. Gregory of Tours : Ibid., p. 154.

هنا يذكر الأستاذ بيورى أن كلوفس اتخذ من نفسه نصيرا للمذهب الكاثوليكى أثناء الصراع الذي قام بينه وبين القــوط الغربيين وعمــل جاهدا على دفع الأريوسيين الهراطقة خارج حدود غاليا ، لذا كانت مشاعر العطف من الكنيسة الغالية الرومانية مــع الفرنجة (١) ٠

ولقد كان ذلك ســـببا فى اظهار الامبـــراطور أنسطاسيوس الأول Anastasius I ٤٩١ ـ ٥١٨(٢) « استحســـانه من الملك الميروفنجى »(٣) لذلك أنعم عليه برتبة القنصلية ٠ وقد فصل لنا جريجورى أيضا وصف ما حدث فى ذلك اليوم فى حوليته من « ٠٠٠٠ أن كلوفس خرج مرتديا الارجوان ، ممتطيا جواده ، وأخذ يرمى العملات الذهبية والفضية على الاهالى على طول الطريق من مدخل كنيسة القــديس مارتن حتى كاتدرائية تور ٠ وأنه عرف منذ ذلك اليـــــوم فصاعدا باسم القنصـــــل Consul أو الأغسطس Augustus »(٤) ٠

---

1. Bury : Op. Cit., V. 1, pp. 463-464.
2. Ostrogorsky : History of the Byzantine State, p. 578.
3. Bury : Op. Cit., p. 464.
4. Gregory of Tours : Op. Cit., p. 154.

باريس مقرا لكلوفس ٥٠٨ م :

لم يلبث كلوفس أن دخل باريس بعد حصوله على درجة القنصلية فى ٥٠٨ م وجعلها مقره الرئيسى ، « وكان ذلك اختيارا رائعا لانه من السـهل الدفاع عنها على جزيرة فى نهر السين، ولانها تقع فى ملتقى طرق استراتيجية وتجارية . حقيقة ان الامبراطور جوليان كان قد اختارها فى الماضى ، لكن ذلك كان عمـلا مفاجئا يدل على العبقـرية من كلوفس البربرى » (١) .

كلوفس والفرنجة البريين :

ألب كلوفس شلودريك Chloderic بن سيجيبرت ملك الفرنجة البريين ضد والده حتى قتله ، وعندما حمل الأخير ثروة والده كلوفس قتله أحد رجـال كلوفس (٢) . هنا برز كلوفس للفرنجـة البريين فى

---

1. Previte-Orton : Op. Cit., V. 1, p. 152.

ولقد حكم الامبراطور جوليان من ٣٦١ الى ٣٦٣ م.
(Ostrogorsky : Op. Cit., p. 578)

(٢) بينما كان كلوفس مستقرا فى باريس ، أرسـل سرا الى ابن سيجيبرت يقول : « ان والدك مسن وكسيح فى أحد رجليه . اذا مات فان مملكته ستؤول اليك بالحق وسيأتى تحالفى معها » . ولقد ضل شلودريك بتهلفه على السلطة وبدأ يتآمر على قتل والده . وفى أحد الايام خرج =

صورة المنقذ حيث نصحهم بأن يضعوا أنفسهم تحت حمـايته ، وبالفعل وافقوا وجعلوه حـاكمهم(١)

=

سيجيبرت من مدينة كولون وعبر الراين لأنه كان يريد أن يتمشى فى غابة Buchau • وفى منتصف النهار أخذ قيلولة فى خيمته ، فتآمر ابنه عليه وقتله كى يمتلك مملكته ولكن بقضاء الله وحكمه وقع شلودريك فى الحفرة التى حفرها لوالده • فقد أرسل رسلا للملك كلوفس ليخبره بموت والده وقال له : لقد مات والدى وأخذت مملكته وثروته • أرسل لى مبعوثيك، وسوف أعطيك - بكل سرور أى شىء ترغب فى اختياره من ثروته • فأجابه كلوفس : « أشكرك على شعورك الودى وأسألك أن تبرز كل ثروتك لرسلى ، لكن لك أن تحتفظ بها » • جاء المبعوثين وأظهر لهم شلودريك ثروة والده التى كانت موضوعه فى خزانة • فطلبوا منه أن يغمس يده الى قاع الخزانة كى يقدر كمية النقود الموجودة بها • وبمجرد أن حنى رأسه ليفعل ذلك حتى رفع أحد الفرنجة يده وشق جمجمة شلودريك بفأسه ذات الرأسين •
(Gregory of Tours : Op. Cit., p. 155).

(١) عندما سمع كلوفس أن كلا من سيجيبرت وابنه قد ماتا ، جاء الى كولون بنفسه وأمر الاهالى بالتجمع وقال لهم : « بينما كنت أبحر فى نهر Scheldt ، كان شلوديريك ابن ملككم - أخى - مشغولا بالتآمر ضد والده ونفذ ذلك وقتله • وبينما كان شلوديريك يبرز ثروة والده ، قتل بدوره بواسطة شخص أو أكثر • اننى لست مسؤلا عما حدث • فلست أنا الذى أريق وأسفك دم أحد رفاقى الملوك ، لأن ذلك يعتبر جريمة ، لكن باعتبار أن الآمور سارت على هذا المنوال ، فسوف أعطيكم نصيحتى وتأخذون منها ماتريدونه • يجب أن تلتفتوا الى وتضعوا أنفسكم تحت حمايتى • عندما سمعوا ماقاله ، ضربوا تروسهم فى بعضـــها البعض وصـــاحوا بالموافقة • ثم رفعوا كلوفس على ترس وجعلوه حاكمهم •
(Gregory of Tours : Ibid., pp. 155-156).

وبهذه الطريقة أخذ كلوفس ملك سيجيبرت وثروته وأخضع رعاياه لحكمه ٠ والغريب أن جريجورى عقب على ذلك بقوله : « ويوما فيوما أخضع الله أعداء كلوفس تحت سيادته وزاد من قوته لأنه سار أمام الله بقلب مستقيم ٠٠٠٠ »(١) ٠

كلوفس والفرنجة البحرين :

وجه كلوفس قواته بعد ذلك ضد شاراريك Chararic ملك الفرنجةالبحريين الذى كان قد طلب مساعدته أثناء حربه مع سياجريوس ، لكنه وقف على الحياد ، على أن ينضم فى النهاية للمنتصر ٠ فكظم كلوفس غيظه وقتذاك حتى تتاح له الفرصة المناسبة للانتقام ، وبالفعل هاجمه عن طريق الحيلة وقتله هو وابنه وأخذ ممتلكاتهما وثرواتهما وأخضع شعبيهما(٢) ٠

---

1. Gregory of Tours : Ibid., p. 156.
2. Gregory of Tours : Ibid., p. 156.

هنا يذكر جريجورى أن كلوفس استخدم بعض الحيل الحربية واستدرج شاراريك وحبسه ، هو وابنه ثم قيدهما وأمر بتقصير شعريهما ٠٠ فاعترض شاراريك على ذلك الاذلال واندفع فى البكاء ٠ هنا صاح ابنه قائلا : « هذه الاوراق قطعت من شجر لا يزال اخضر ولا ينقصها السائل الذى يجرى فى =

استيلاء كلوفس على ممتلكات أقاربه فى غاليا :

أما أغرب ما سـطره لنا جريجورى عن كلوفس فيبرز من خلال تلك السطور التى رواها لنا عن علاقته بأقاربه وكيف تخلص منهم عن طريق الحيلة والدهاء، كى لا ينازعه أحد عرشه ٠

فقد سبق أن ذكرنا أنه اصطحب معه أحد أقاربه المسمى راجناشر Ragnachar عندما توجه لمحاربة سياجريوس ٠ ولقد روى لنا جريجورى أن راجناشر هذا كـان يعيش فى كامبريا Cambrai ، وكـان منغمسا فى الفسق حتى قيل أنه لم يكن يستطيع أن يمنع يديه أن تمتد الى أى امرأة من عائلته « وكان له

=

أوعية النبات ، انها سوف تنمو سريعا مرة أخرى وتكبر عن ذى قبل ، وربما يموت الرجل الذى فعل ذلك بسرعة » ولقد وصل ذلك التصريح الى أذنى كلوفس وهو يعنى أنهما هددا بترك شعرهما ينمو مرة أخرى ثم يقتلا كلوفس، فقطع رأسيهما ، وبعد موتهما أخذ مملكتهما وثرواتهما ٠ هنا نعقب على موضوع الاذلال الذى لحق بهما عن طريق قص شعريهما بنقل ما ذكره لنا فشر فى كتابة تاريخ أوربا العصور الوسطى الجزء الأول ص ٧١ من أن الفرنجة كانوا مقدسين ٠ وكيف يجرؤ أحد عليهم ، أو على ذوائب شعورهم المرخاة ، وهم منحدرين من ميروفيوس الذى يرجع أصله الى اله البحر العظيم ، حسبما ورد فى أغانى الفرنجة القديمة ؟ وقد أكد لنا سدنى بينتر نفس المعنى عندما ذكر أن الاعضاء الذكور فى البيت الميروفنجى يتركون شعورهم تنمو حتى اكتافهم كعلامة على أصلهم الالهى ٠

(Sidney Painter : Op. Cit., p. 64)

مستشار يسمى فارو Farro يشـــاركه نفس تلك العادات الفاحشة فأدى هذا الى ارتفاع غضـــب رعاياهما الفرنجة الى أقصى حد · هنا قدم كلوفس رشوة عبارة عن أساور يد ذهبية وأحزمة سيوف الى حاشية راجناشر كى يشجعهم على استدعائه داخل مملكتهم ضد ملكهم والواقع أن تلك الحلى كانت كلها من البرونز المطلى بالذهب باتقان شديد ، ثم سـار كلوفس بجيشه ضد راجناشر · وعندما عاين الأخير هزيمة جيشه استعد للهرب ، لكنه قبض عليه بواسطة قواته نفسها وقدم هو وأخــوه ريشار Ricchar الى كلوفس فقتلهما ، ثم وبخ بشدة من تآمروا معه من رفاقهما (١) ، كما قتل أخاهما الثالث الذى كان

---

(١) اقتيد راجناشر بعد أن ربطت ذراعاه خلف ظهره ، واقتيد معه أيضا أخوه ريشار · عندئذ وجه كلوفس حديثه الى راجناشر قائلا : « لماذا الحقت الخزى والعار بشعب الفرنجة بالسماح لنفسك أن تقيد ؟ لقد كان من الافضل لك أن تموت فى المعركة » · ثم رفع فأسه وشق بها جمجمة راجناشر · ثم التفت الى أخيه وقال : « اذا كنت قد وقفت بجانب أخيك فانه لم يكن ليقيد على هذا النحو » · ثم قتل ريشار بضربة ثانية من فأسه وعندما مات الاثنان اكتشف هؤلاء الذين تآمروا عليهم أن الذهب الذى تلقوه من كلوفس كان مزيفا · وعندما اشتكوا لكلوفس أجابهم قائلا : « هذا هو نوع الذهب الذى يتوقعه رجل اغوى على الموت سيده عن عمد · ثم أضاف أنهم محظوظون لانهم نجوا بأرواحهم بدلا من دفعها ثمنا لخيانة حكامهم وذلك بتعذيبهم حتى الموت » · وعندما سمعوا ذلك اختاروا أن يلتمسوا الصفح والمغفرة ، بقولهم انه يكفيهم انهم سمح لهم بالحياة ·
(Gregory of Tours Op. Cit., p. 157).

فى لومانس Le Mans ٠ وبعد قتلهم أخذ كلوفس أراضيهم وثرواتهم ٠ وبنفس الأسلوب قتل عددا آخر من الملوك تربطهم به روابط الدم ٠ وبهذا تمكن من بسط نفوذه على كل غاليا ٠ وفى أحد الأيام عندما كان فى اجتماع عام مع رعاياه ، أبدى كلوفس هذه الملاحظة عن أقاربه « ياله من شىء محزن أن أعيش وسط غرباء مثل بعض الحجاج المعتزلين للتنسك والعبادة ، وأنه لم يبق لى أحد من الاقارب كى يساعدونى اذا ألمت بى مصيبة ! » ٠ وهنا يكتفى جريجورى بأن يعلق تعليقا ساخرا ومعبرا بشدة عما فى قرارة نفس كلوفس فيقول « انه لم يقل ذلك لحزنه لموتهم ، لكن لأنه بطريقته الماكرة كان يتمنى أن يجد بعض الأقارب الباقين على قيد الحياة فيقتلهم » (١) ٠

كلوفس والقوط الشرقيين :

واكب حكم كلوفس لغاليا حكم ثيودريك Theoderic ملك القوط الشرقيين Ostrogoths لايطاليا ٠ ويعتبر ثيودريك الشخص الوحيد بين معاصريه الذى اجتمعت فيه مظاهر العصور القديمة والوسطى ، وقد اعتبر من احدى وجهات النظر حاكما رومانيا لا زعيما بربريا ٠ ويكفى أن ايطاليا تمتعت فى عهده بحكومة

---

1. Gregory of Tours : Ibid., pp. 156-158.

قوية حازمة سارت وفق الأساليب والنظم الرومانية ٠ من ذلك أن ثيودريك لم يدخل سوى تعديلات قليـــلة نسبيا فى النظم القائمة بايطاليا وذلك خـلال حكمه الذى امتد من ٤٨٩ حتى ٥٢٦ م (١) ٠

الواقع أن كلوفس كان يعد القوة الوحيدة الموازنة لثيودريك (٢) ٠ كان ثيودريك ملكا جرمانيا أريوسيا، أقام سياسته الخارجية على المصالح العامة للممالك الجرمانية ، حيث هدف الى اقامة اتحاد يضمهمجميعا ليحفظهم من محـــاولات الامبراطورية البيـــزنطية لاستعادتهم الى جانب الطموحات الطائشة من ملك لآخـر ٠ ولهذه الغـاية عقد العـديد من تحـالفات الزواج(٣) مثال ذلك تزويجه لأخته الأرملة أما لافريدا

---

(١) د٠ سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ١ ص ١٠٣ ٠
اذا كان ريتشارد ساليفان قد ذكر ان حكم ثيودريك قد امتد من ٤٩٣ حتى ٥٢٦ م فانه أيد نفس الرأى السابق فى ان ثيودريك واصل التقاليد الرومانية القديمة ، مع الاحتفاظ بشىء من عنف النظام المتبربر ٠
(ريتشارد ٠ أ ساليفان ترجمة د٠ جوزيف نسيم : ورثه الامبراطورية الرومانية ص ١٠) ٠
والراجح أن ساليفان أرخ لفترة حكم ثيودريك منذ دخوله زافنا فى ٥ مارس ٤٩٣ م بعد انتصاره على أودواكر وليس ببداية دخول القوط الشرقيين لايطاليا فى نهاية ٤٨٩ م٠
(Bury : Op. Cit., V. I, pp. 422, 426)
2. Previte Orton : Op. Cit., V. I, p. 152.
3. Previte Orton : Ibid., V. I, p. 139.

Amalafrida سنة ٥٠٠ م لثراساموند Thrasamund الوندالى ،كما زوج ابنة أخيهلهارمنفريد Harmanfrid الثورنجى ، أما بناته فقد زوج احداهما لألريك الثانى ملك القـــوط الغربيين ، والثـــانية لسيجسموند Sigismund البرجندى ، أما ثيودريك نفسه فقـــد أتخذ أودوفليدا Audofleda أخت كلوفس ملك الفرنجة زوجة ثانية له(١) ٠

لكن بالرغم من اتباع ثيودريك لتلك السياسة التى تدل على اتساع أفقه فى عصره « الا أنها تحطمـت بواسطة طموحات كلوفس الكاثوليكى »(٢) ٠ و يرجع ذلك الى سببين هامين : أولهما ايواء ثيودريك ملك القوط الشرقيين لبعض الألمانى الوثنيين الفاريين من كلوفس(٣) هذا الى جانب هزيمة ومقتل الريك الثانى

1. Bury : Op. Cit., V. I, p. 461, Previte Orton : Ibid., V. I, p. 139.
2. Previte-Orton : Ibid., V. I, p. 139.
3. Previte-Orton : Ibid., V. I, p. 139, Bury : Op. Cit., V. I, p. 461.

هنا يذكر بيورى عن كاسيدور Cassiodorus أن ثيودريك رد على كلوفس بقوله : « اسمع أيها القنصل ، من شخص له خبرته فى مثل تلك الامور ، ان حروبى مربحة ، ونهايتها توجه بطريقة هادئة عن طريق المراسلات » ٠

ملك القوط الغربيين على أيدى كلوفس فى موقعـــة فوجلييه ٥٠٧ م(١) ٠

حقيقة أن ثيودريك حاول التوفيق بين كل الاطراف المتصارعة قبل نشوب المعركة ، الا أنه أخفق فى تجنب حدوثها ، فقد أرسل ثلاثة خطابات الى كل من كلوفس وحليفه جندوباد البرجندى والى الريك ، لكن بدون جدوى ٠ هنا لم يكن أمامه الا أن يعـــد زوج ابنته بتقديم المساعدة المناسبة(٢) ٠

والراجح أن ثيودريك لم يستطع تقديم المســـاعدة الفعلية وعلى التدخل مبكرالأنه انشغلبانزال أسطول بيزنطى لقواته على شاطىء أبوليا Apulia — ويقال أن ذلك كان بتحريض من كلوفس نفسه(٣) ٠ وهكذا وقعت الموقعة وقتل فيها الريك زوج ابنه ثيودريك كما رأينا ولما كان وريث الريك ما يزال طفلا ، فقد عهد بتصريف شئون حكومة مملكته الى ثيودريك ، جـده وأقوى الأوصياء فى نفس الوقت(٤) ٠

واذا كان كلوفس قد استطاع أن يضم اكوتين تحت

---

1. Previte-Orton : Ibid., V. I, p. 139.
2. Bury : Op. Cit., V. I, p. 462.
3. Christian Pfister : Cam. Med. Hist. V. II, p. 114.
4. Bury : Op. Cit., V. I, p. 462.

نفوذ الفرنجة ٥٠٧ م بعد موقعة فوجلييه ، فان قواد ثيودريك واصلوا حملاتهم فيغاليا ونجحوا فى تحرير آريلس Arles ، وفى الحفـــاظ على ناربونيس لمملكة القوط الغربيين (١) كما ضم القوط الشرقيين بروفانس وهزموا حملة أرســـلت لفتح ســـبتمانيا Sptimania (٢) كذلك ضم القوط الشرقيين ناربون ونيم ووضع ذلك الاقليم تحت حكم أملريك بن الريك وقامت بذلك العلاقات على طول ساحل البحر المتوسط بين مملكتى القوط الشرقيين والقوط الغربيين(٣) ٠

وهكذا حقق كل من ثيودريك وكلوفس نتائج قيمة من وراء تلك الحرب ، واذا كانت سبتمانيا قد أفلتت من قبضة كلوفس ، فقد استطاع أن يمد مملكته من اللوار حتى البرانس ٠ أما جندوباد البرجندى فكان الوحيد الذى خرج من تلك المعركة خالى الوفاض(٤) ٠

1. Bury : Ibid., V. I, p. 462, Christian Pfister : Cam. Med. Hist., V. II, p. 114.
2. Previte-Orton : Op. Cit., V. I,p.139.
3. Christian Pfister : Cam. Med. Hist. V. II, p. 114.

أما أملريك حفيد ثيودريك ملك القوط الشرقيين ، آخر ســـلالته من القوط الغربيين فقد قتل بعد أن تلقى هزيمة بواسطة الفرنجة بسبب سوء معاملته لزوجته الكاثوليكية الفرنجية وحفظ الوضع بواسطة ملك جديد هو ثيوديس Theudis من القوط الشرقيين ، أحد النواب السابقين للملك ثيودريك من (٥٣١ - ٥٤٨) الذى صد بنجاح هجمات أبناء كلوفس ٠
(Previte-Orton : Op. Cit., V. I, p. 144).

4. Christian Pfister : Cam. Med. Hist. V. II, p. 114.

كلوفس والقانون صالى :

هكذا قضى كلوفس حياته فى حروب متواصلة ساعدته على تحقيق العديد من طموحاته ، وربما كان انشغاله المستمر فى ميدان الحرب والتخطيط لتوسيع مملكته هو الذى جعله لا يترك لنا بصمات حضارية واضحة ، اللهم الا ذلك القانون العرفى Salic Law المكتوب باللغة اللاتيية والخاص بالفرنجة البحريين (الصاليين Salian Franks) ، ذلك القانون الذى كان بدائيا للغاية ٠

وهنا يرجع بريفيت أورتون السبب فى اصدار كلوفس لمثل هذا القانون الى أن ذلك « كان سمة من سمات تأثير الكنيسة ، ونوعا من التقدم الطفيف والبارز فى نفس الوقت بين الفرنجة »(١) ٠

وفى ظل هذا القانون كان الملوك قضاة ذوى منزلة عالية ، وكان بامكانهم أن يقتلوا الرجال بدون محاكمة ، وكانت الجرائم التى ترتكب بأمر منهم معفاة من العقاب ، بل كان أهل بيتهم وأتباعهم الاقطاعيين محميين بواسطة دية ثلاثية أى مضاعفة ثلاثة مرات ٠ وكانت القيود الوحيدة عليهم هى الثورة والاغتيال

---

1. Previte-Orton : Op. Cit., V. I, p. 153.

أو القتل التى تجعلهم فى الواقع مسؤولين قانونيا عند اللجوء اليها بأنفسهم (١) ٠

نهاية كلوفس وكلوتيلد :

توفى كلوفس فى ٥١١م فى باريس ودفن فى كنيسة الرسل المقدسين Holy Apostles ، وهى التى كان قد بناها هو وكلوتيلد ٠ أما زوجته فقد عاشت بعد وفاته فى تور وخدمت كراهبة فى كنيسة القديس مارتن ٠ هنا يذكر جريجورى التورى أنها « عاشت بقية أيامها فى هذا المكان بعيدا عن مجرد زيارة ولو عارضة لباريس ٠ وكانت معروفة بتواضعها وبساطتها وحيائها واحتشامها الىجانبشفقتها وحنانها »(٢)٠

مملكة الفرنجة بعد كلوفس :

بوفاة كلوفس قسم أبناؤه الأربعة مملكة الفرنجة الى أقسام متساوية تقريبا ٠ وأخذ كل منهم جزءا من غاليا شمال اللوار وجزءا جنوبه ، وكانت كل عواصمهم فى أرض غاليا الرومانية ٠ فأخذ ثيودريك Theodoric (وهو ليس ابن كلوتيلد) ريمس Rheims

---

1. Previte-Orton : Ibid., V. I, p. 160.
2. Gregory of Tours : Op. Cit., p. 158.

وأخذ كلودومير Chlodomir أورليـان Orleans وشلدبرت Cheldebert باريس وكلوتير الاول Chlotar 1 سواسون . ولكنجشعهم وطمعهم جعلهم أعداء ألداء غير مخلصين . وعندما توفى كلودومير ٥٢٤ م قتل شلدبرت وكلوتير أبناءه وأخذا نصيبه (١) .

والواقع أنه لما كان من الطبيعى أن تدب المنافسات والبغضاء والشحناء والحـروب بين الأبنـاء ، فان مملكة الفرنجة ظلت موبوءة بحروب داخلية لا طائل تحتها ، خمسة أجيال متتالية (٢) .

والحقيقة أن الفوضى السياسية سرعان مادبت فى الممالك الجرمانية عامة وفى مملكة الفرنجة على وجه الخصوص . ويوجز ريتشارد ساليفان أسباب تلك الفوضى على النحو التالى :

كان الجرمان أقلية وصلت الى السلطة عن طريق الغزو ، لذلك كان نفوذهم محدودا على رعاياهم ،

---

1. Previte-Orton : Op. Cit., V. p, 153.

هنا يذكر سدنى بينتر أن الاجزاء التى انقسمت اليها دولة الفرنجة كانت : أستراسيا ، نستريا ، برجنديا واكوتين
(S. Painter : Op. Cit., p. 64)

(٢) فشر : تاريخ أوربا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٧٤ .

ولما كانت حدود دولهم غير محددة تحديدا واضحا فقد انغمسوا فى حروب محلية بهدف الحصول على أراضى جديدة أو الدفاع عن أراض قديمة٠ وفى النهاية واجه الحكام الجرمان المهمة الثقيلة الخاصة بحكم شعوب كانت تتمتع فى يوم ما بالخدمات التى قدمها لها النظام الامبراطورى وكانت لا تزال تتذكـــر تلك الخدمات٠ وعلى هذا فان أى مقارنة بين الامبراطورية الرومانية القديمة والممالك الجديدة المتبربرة لا يمكن أن تعمل الا على التهوين من شأن الجرمان والحط من قدرهم ٠ وعلى أية حال لم يحد الامراء الجرمان عن بربريتهم الا قليلا ٠ وتصلح مملكة الفرنجة فى غاليا تحت حكم الأسرة الميروفنجية أن تكون مثالا يكشف عن مصير الحكومات الجرمانية التى تأسست فوق أنقـاض الامبراطورية المتداعية ٠ ويترك التـاريخ الميروفنجى فى ذهن القارىء انطباعا عن التناقض بين ادعاءات ملوك الأسرة الميروفنجية وسلطاتهم ، فقد ادعى جميع خلفاء كلوفس مؤسس هذه الأسرة أن سلطتهم مطلقة ، ولكن نفوذهم الفعلى تضـــاءل تماما فيما بين نهاية القرن السادس وأواسط القرن الثامن للميلاد الى أن انهار فى آخر الأمر ٠ وكانت أسباب هذا الاضمحلال عديدة ، فلم يستطع معظم الميروفنجيين التخلى عن تقاليدهم السياسية المتبربرة وخلقوا بذلك جـــوا مشبـــعا بالعنف والارهاب والاستبداد نتيجة اعتمادهم الشـــديد على القوة

لتحقيق غاياتهم السياسية • لقد كان ملوك الجرمان يعتبرون الدولة طبقـا للتقليد الجـرمانى القـديم من ضمن ممتلكاتهم الخاصة يقسمونها بين جميع ورثتهم الذكور ، وأدى ذلك الى قيام مشاحنات أسرية مليئة بالأفعال الشائنة ، كذلك أدت التقسيمات المتكـررة للارض فى نهاية القرن السابع الميلادى الى تفتيت الدولة الميروفنجية التى كانت موجودة من قبل (١) •



---

(١) ريتشارد •ن• ساليفان ، ترجمـــة د• جوزيف نســيم : ورثة الامبراطورية الرومانية ، ص ٧٨ ـ ٨١ •

الخـــاتمة

وهكذا عرضنا لنقطتين هامتين فى بحثنا هذا ، أولهما : أننا قمنا بدراســـة مستفيضة وتحليليـــة لشخصية جريجـــورى التـــورى الأسـقف المؤرخ الذى مثــل لنـــا مؤرخــى العصـــور الوســطى الاوربية عامة ومؤرخى القــــرن السادس الميلادى خاصة خير تمثيل • ولقد ألقينا الضوء عن قرب على حوليته عن تاريخ الفرنجة التى تعتبر فى الحقيقة أهم مؤلفاته بالنسبة للمشتغلين فى حقل التاريخ الوسيط• أما النقطة الثانية : فهى قيام أو نشأة دولة الفرنجة على عهد كلوفس الميروفنجى • ولقـــد اســـتقينا المعلومات والحقائق عن تلك الفتـــرة من حوليـــة جريجورى التورى التى تعد خير مصدر للمعلومات عنهـــا •

لكننا نود قبل أن نفرغ من بحثنا هـــذا أن ننوه بنقطة تلح على تفكيرنا نضعها فى صورة تساؤل على النحو التالى : ما هى أهم انطباعات جريجورى عن كلوفس ؟

هنا نرد على التساؤل فى نقاط محددة نتناولها بعد ذلك بشىء من التفصيل •

كلوفس فى رأى جريجورى التورى :

١ ـ اعتبره جريجورى قنسطنطينا آخر عند تعميده ٠

٢ ـ عند محاربة كلوفس للأريوسيين أكد جريجورى على أن انتصاراته ضدهم حدثت لأن الله كان معه ٠

٣ ـ يعتبر جريجورى كلوفس من أهم الملوك الذين حافظوا على حسن علاقاتهم بالقديسين ٠فكان كلوفس يقدس بشدة القديس مارتن مثلا (١)٠

٤ ـ نقطة أخيرة وهى أن نظرة جريجورى للأمور من داخل الكنيسة ، أو من وجهة النظر الدينية جعلته يتغاضى عن قسوة كلوفس دائما فى التعامل مع كل من حوله ما دام قد رفع راية الجهاد لنصرة المسيح والمسيحيين على المذهب

---

(١) انظر Gregory of Tours Op. Cit., pp. 151-152, 154
والحقيقة أن الفرنجة عامة كانوا يؤمنون بالقديسيين الى جانب ايمانهم بالله وكانوا يتوسلون اليهم باستمرار ويعتقدون فى تدخلهم فى شئون هذا العالم ٠
(Christian Pfister : Cam. Med. Hist., V. II, p. 145)

الحق(١) ٠

والحقيقة ان ما نجده من الغرابة أحيانا فى كتابة جريجورى قد يرجع الى البعد الزمنى بيننا وبينه ، وتفسر بيريل سمالى Beryl Smalley ذلك الرأى بقولها: ان الناس فى العصورالوسطى كانوا يشعرون بالألفة تجاه ماضيهم بينمانشعر نحن أنناغرباء عنماضينا٠ وعلى المؤرخ أن يبذل جهده للتأقلم مع روح العصور الوسطى ، ثم عليه أن يحزم متاعه ويتأهب مرة أخرى كما لو كان يريد زيارة العالم القديم ٠ أما مؤرخو العصور الوسطى فكانوا يسافرون الى هذا الماضى بدون متاع(٢) ٠

أما عن موضوع تعميد كلوفس فان جريجورى

---

(١) يتفق ذلك مع ما أوردته بيريل سمالى عن مؤرخى العصور الوسطى عندما قالت : كان بامكان المؤرخ بصفته أحد رجال الكنيسة ، أن يجعل من اعتناق المحارب الناجح للمسيحية مجدا تكتسبه الكنيسة ٠ بيد أن المشكلة تمثلت فى أن التعميد نادرا ما كان يؤدى الى ممارسة الفضائل المسيحية٠ ولذا كان المؤرخ يجد أنه من الايسر عليه أن يربط نفسه بشعبه مغتفرا للحاكم خطاياه المجافية لتعاليم الكنيسة بشرط أن تكون المملكة قد ازدهرت ابان فترة حكمه ٠

(بيريل سمالى : ترجمة د٠ قاسم : المؤرخون فى العصور الوسطى ، ص ٥٨) ٠

(٢) بيريل سمالى : المرجع السابق ، ص ٦٦ ٠

بالغ فى هذا الموضوع حتى أنه شـبهه فى تعميده بقنسطنطين العظيم ، الذى كان اعترافه بالمسيحية فى مرسوم ميلان سنة ٣١٣ م نقطة بارزة بالنسبة لتاريخ أوربا العصور الوسطى عامة · فشتان ما بين كلوفس الجرمانى البربرى وقنسطنطين الامبراطور العظيم ·

ان اعتناق كلوفس للدين المسيحى على المذهب الكاثوليكى جعله ينعم هو وشعبه بعطف الكنيسة الكاثوليكية بأكملها ، حيث وقفت من الفرنجة موقف الحليف الصديق ، واعتبرت جميع انتصاراتهم الحربية فتحا للكنيسة والدين(١) ·

والحقيقة أن الكنيسة الكاثوليكية لم تلبث أن فرضت ثقافتها اللاتينية على الفاتحين ، فتشربها الفرنجة فى سهولة حتى أن حفيد كلوفس المسمى شلبريك استطاع أن ينظم أشعارا فى اللغة اللاتينية وأن يضيف الى الحروف اللاتينية أربعة أحرف يونانية ـ كما مر بنا ـ امعانا فى التفاخر والدلالة على مبلغ ما اكتسب من العرفان ، مع أنه هو الذى نعته المؤرخ جريجورى التورى نفسه أسوأ النعوت ، حين سماه نيرون عصره تشبيها له بالامبراطور

---

(١) فشر : تاريخ أوربا العصور الوسطى ، حـ ١ ، ص ٧٢ ·

الرومانى المعروف ، كما وصفه بأنه هيرود زمانه ، اشارة الى الملك اليهودى الشهير فى فلسطين ، ابان مولد المسيح عليه السلام (١) ٠

والواقــع أنه بمـــرور الوقت أغـــدقت الأسرة الميروفنجية امتيازاتها بسخاء على الكنيسة ، لكن ملوك تلك الأسرة أصروا على أن رجال الدين الذين يحصلون على موافقتهم هم فقــط الذين فى امكانهم ان يشغلوا الكراسى الأسقفية ، بل أكثر من ذلك لم يسمح أحد من الميروفنجيين لأىمجمع كنسىبالاجتماع الا بدعوة منه ، وان قرارات المجمع لا تكـــون ذات فاعلية الا اذا صدرت بواسطة الملك ٠

وهكذا كانت الناحيتان الشــــخصية والشرعية للكنيســة الفرنجية تحت الاشراف الملكى الصـــارم والقاسى ٠ وكان لذلك آثاره الهامة على الكنيسة ، فالكنيسة الفرنجية أصبحت مقسمة بنفس الطــريقة التى قسمت بها الدولة الفرنجية ٠ وكان اختيـــار الأسقف يتم بواسطة الملك الذى تقع الاسقفية تحت سيطرته ٠ وكانت المجامع الكنسية تشتمل فقط على الأساقفة الذين ينتمون لملكة واحدة ٠ وعلى أية حال فان الميروفنجيين المتأخرين مالوا الىاعتبار الاساقفة

---

(١) نشر : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٧٣ ٠

جزءا من تنظيماتهم الادارية . وبمعنى موجز أصبحت الكنيسة جزءا من الدولة الفرنجية ، واعتمدت أحوالها كلية على الملوك . وباعتبار أن غالبية الملوك كانوا برابرة همجيين فان الكنيسة كانت عادة فى حـــالة يرثى لها (١) .

تم بحمد الله

---

1. S. Painter : Op. Cit., p. 66.

المصادر والمراجع

أولا : المراجع العربية والمعربة :

١ - اسحق عبيد (الدكتور) :
معرفة الماضى ، من هيرودوت الـــى توينبى ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ١٩٨١ ٠

٢ - بيريل سمالى (الدكتورة) :
ترجمة الدكتور قاسم عبده قاسم : المؤرخون فى العصور الوسطى ، الطبعة الثانيـــــة ، دار المعارف ٠

٣ - ريتشارد أ٠ ساليفان :
ترجمة وتقديم الدكتور جوزيف نسيم يوسف : ورثة الامبراطورية الرومانية ، الاســكندرية ١٩٨٥ ٠

٤ - عاشور : سعيد عبد الفتاح (الدكتور) :
١ - أوربا العصور الوسطى ، الجزء الاول، التاريخ السياسى ، الطبعة الخامســة ١٩٧٢ ٠

٢ - أوربا العصور الوسطى ، الجزء الثانى،

النظم والحضارة ، الطبعـــة الثانيـة ١٩٧٢ ٠

٣ ــ حضـارة ونظم أوربا فى العصــــور الوسطى ، بيروت ١٩٧٦ ٠

٥ ــ فشر (هـ ــ أ ــ ل) :
تاريخ أوربا العصور الوسطى ، الجزء الاول، نقله الى العربية الدكتـــور مصـطفى زيادة والدكتور الباز العرينى ، الطبعة الخامســة ١٩٧٦ ٠

٦ ــ محمود محمد الحويرى (الدكتور) :
رؤية فى سقوط الامبراطورية الرومانية ، دار المعارف ١٩٨١ ٠

ثانيا : المصادر والمراجع الأجنبية :

1. Bury (J.B.) : History of the Later roman Empire, from the death of Theodosius 1 to the death of Justinian, Volume 1, Dover Publications, New York.

2. **Christian** Pfister : The Cambridge Medieval History, **Volume** 11, Cambridge at the University Press, **1967.**

3. Gregory of Tours : The History of the Franks, Translated by Lewis Thorpe, Penguin Classics.

4. Lexicon Universal Encyclopedia, Lexicon Publica,-tions, New York, 1983.

5. Painter (S.) : A History of the Middle Ages 284-1500, London 1966.

6. Previte-Orton (C.W.) : The Shorter Cambridge Medieval History, Volume 1. Cambridge University Press.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

رقم الايداع ٤٠٩٧ / ١٩٨٨
الرقم الدولى ١ ـ ٠٦٧٦ ـ ٠٥ ـ ٩٧٧


جروب خزانة الكتب التاريخية